NOVEL

رواية

حمزة الحسن

حقول الخاتون

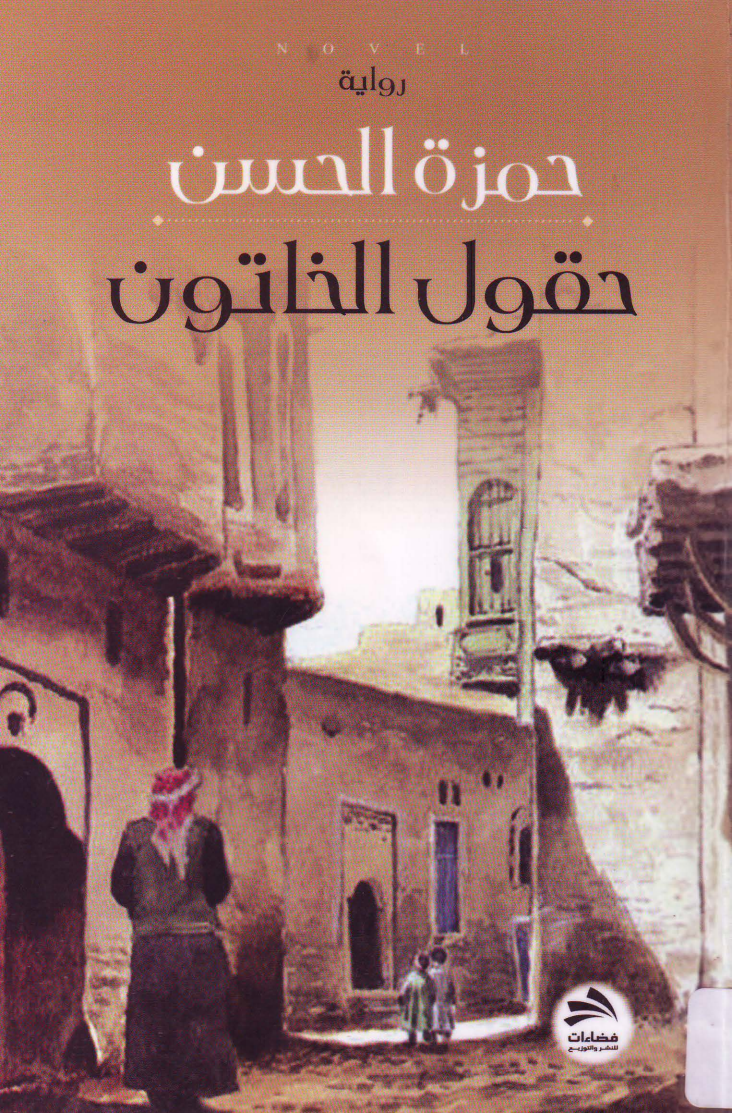

فضاءات
للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى- ٢٠٠٩
ر.إ: ٢٠٠٩/٦/٢٧٨٣
المؤلف حمزة الحسن-العراق
ISBN ٩٧٨-٩٩٥٧-٣٠-٠٩٧-٥

دار فضاءات للنشر والتوزيع
عمان- شارع الملك حسين- مقابل سينما زهران
تلفاكس: ٤٦٥٠٨٨٥ (٦ - ٩٦٢+)
هاتف جوال: ٠٧٧٧/٩١١٤٣١
ص.ب ٩٢٥٨٤٦ عمان ١١١٩٠ الأردن
Dar_fadaat@yahoo.com
http://www.darfadaa.com

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله باي شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق من الناشر.

تصميم الغلاف: نضال جمهور
الصف الضوئي والإخراج الداخلي: فضاءات للنشر والتوزيع

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لاتعبر بالضرورة عن رأي دار فضاءات للنشر والتوزيع.

حمزة الحسن

حقول الخاتون

رواية

"وما الفائدة؟ سوف يظل بريئاً على الدوام، وليس بمقدورك لوم الأبرياء، فهم لا يعرفون الإثم على الإطلاق. كلّ ما يسعك هو كبحهم أو القضاء عليهم. البراءة نوع من الجنون".

- غراهام غرين، .الأمريكي الهادئ.

"هذا زمن سحّاج، أي زمن تقشير".

- حوم أو بلزاك المجوز، أحد شخوص الرواية.

الفصل الأوّل

طريق الرياح

شاحنة على طريق عام، شاحنة في نهار صيفي محرق، من البصرة إلى بلدة ديانا في الجبال، وكانت الشمس قد حوّلت البيوت الساكنة في الوهج والسطوع والمآذن والجسور والحقول والطيور إلى خيوط ملتهبة وتلوح الثكنات على الطريق رمادية موحشة.

شاحنة غجر ـــ كاولية ـــ ويساري هارب وكردي مطارد. فرقة غجر كاملة من طبالين وعازف ربابة وثلاث راقصات وعجوز هرم هو مؤرخ العائلة وسيرة الكاولية شهد حفل دفن مس بيل في بغداد في المقبرة الملكية خلف كنيسة الأرمن والدخول البريطاني إلى بغداد وانهيار الملكية وقيام الجمهورية وهو جوال رحال جواب يعيش على تخوم المدن دون أن يكون فيها حتى في لحظات الفرح المُشترى وضرب الطبول وهزّ الخصور.

إنّه العجوز بلزاك كما أسميه أنا الفار اليساري والمشبوه والمتهم بتنظيم سري، وقد أطلقت على نزلاء الشاحنة أسماء مختلفة: سائق

السيارة الكردي الهارب من البيشمركة بتهمة العمل مع السلطة والهارب من السلطة بتهمة العمل مع البيشمركة أسميته حسين مردان، وعازف الربابة زرياب وأصغر الراقصات فرح أطلقت عليها اسم بياتريس عشيقة دانتي هوميروس، وأما الجد ومؤرخ العائلة والتاريخ السري للعراق فاسمه بلزاك ومرة أخرى برنارد لويس، وتم تحويل الاسم من قبل حسين مردان فصار برنارسن فوجده الأجمل في شاحنة الطريق القادمة من الجنوب مرورًا بعشرات المدن الغجرية في الطريق إلى بلدة ديانا.

نحن شاحنة غرام التاريخ، هاربون من الضجر والسجن والوليمة والانتماء ولا أحد منا يحمل جنسية أو وثائق رسمية لأنّنا كاولية خارج التراتبية وليس مهما الأسماء التي نخترعها حسب الحاجة لأنّنا نحمل اسما واحدا هو الكاولي. أنا من اليوم سأكون ضارب طبل الفرقة. بمعنى خشاب في فرقة متنقلة بعد أن كان الحلم أن أكون شاعرًا أو مهندسًا أو طبيبًا أو معلمًا في قرية نائية.

فالح حوم أو زرياب، في استراحات الطريق، لا يكف عن العزف على الربابة، وبياتريس لا تكف عن الغناء والرقص وانا لا اكف عن الضحك والدهشة والسرور، وبلزاك صامت كما لو انه ولد في مترل اورهان باموق التركي، المترل الصامت أو البيت المعوج لاجاثا كريستي، يروي بين بلدة ونقطة تفتيش وسيجارة عن الملوك القتلى والجيوش الغازية والحدود والعشق والغجر وبغداد يوم كان سائس

خيل في اسطبلات وجيه بغدادي في عشرينات القرن، و عن الهند وتركيا ورومانيا واوشفيتز وعرق المستكي اللعين الذي يجعل الكاولي عراقيا بلا وثائق رسمية ويحول طيور الكراكي إلى خنازير برية ويفتح دروبا في السماء، سماء الشاحنة. لا سماء أخرى لنا غيرها ولا حلم غير نجمة وضوء وعربة غجر متجولة وحولها يرقص أطفال عراة حول جثة كما في لوحة لمارك شاغال.

أنا اليساري، يقولون، تحولت إلى كاولي بين ليلة وضحاها وقررت اللجوء إلى شاحنة هي الوحيدة التي تحمل هوية كما يردد حسين مردان أو عبد الله كوران. الشاحنة مارسيديس ونحن في عام ١٩٧٩.كاولية ومعدان ـــ رعاة جاموس. نعم معدان وهذه لعنة إضافية لأنني مشبوه بلعنتين العمل في حزب معارض والعيش في زريبة معدان أو شروكية ولذلك تساويت مع الغجر في الدور: لا حقوق ولا واجبات.

طبال جديد بالرغبة بعد أن كان يجب أن أكون طبالاً من نوع آخر بالإكراه، هذا الطبل يصدر نغما وذاك يصدر ألماً. لا عليك يا بلزاك سوف نمر من مستوطنة الكمالية وأرفع يدي تحية للشماعية مستشفى المجانين، للرفاق الحقيقيين في زمن المتاهة، ونحن في العاشر من آب كما تقول بياتريس والشاحنة تتوقف بين وقت وآخر عند حدود مدينة أو سيطرة. لا يحتاج الأمر إلى قلق. يرفع كوران السائق

يده من خلف النافذة لجنود السيطرة المختبئين من هجير الظهيرة صارخًا بما يشبه البكاء والشتيمة والعويل والعواء من أعماق مقصية: كاولية، كاولية. يرقص جنود السيطرة، ترقص السيطرة، يرقص العالم.كاولية وشيوعي مصنّع وغجر ومعدان فارين من العرق والسلالة والدم والأسطورة والجنسية وكلود شتراوس وعلي الوردي وسارة خاتون والأحزاب الثورية وعوالم قلعة برتو المتخيلة.[1]

قال حسين مردان وهو يرى جنود الحراسة على الطرق يرفعون بيرياقم وبنادقهم في الهواء راقصين جذلين حين تمرّ الشاحنة، برصانة من خارج طبعه العفوي والمرح والهازل: "تعرف... فكرت الآن أننا بعشر شاحنات كاولية سنسيطر على القصر الجمهوري".

قلت فزعًا: "شوف أبو الكرزات والشاي والجبل والبنادق والتتن ــ كما يقول الشاعر عبد الله كوران ــ لا تقل هذا مرة أخرى لأنّهم يعاقبون بالموت على النوايا والأحلام والنكات ويصير زبك حبلا على رقبتنا. تظل حاسة المخرب قوية فيك إلى النهاية". ضحك عاليًا كنسر جبلي محلق تحت سماء صيفية زرقاء بلون حقل مسائي قائلا: "نعم مخرب وانقلابي مسلّح بالبطل والزنجاري والربابة وكأس

---

[1] قلعة برتو: الاسم البابلي لمدينة تكريت

العرق" وحين اقتربنا من نقطة تفتيش صرخ بما يشبه العواء –"كاولية، كاولية".

كم من هذا الرعب لم تسجله الوثائق وسيظل مخفيًا إلى الأبد ولا تُرى غير الجرائم المكشوفة والسجون والثكنات وثياب حداد الأرامل السود؟ كيف يمكن تصوير الفزع اليومي والأحلام والرغبات المتفسخة من الانتظار والخوف والنوايا والنكات والتروات الإنسانية العابرة؟ أيقظني عواء حسين مردان وكنت أجلس إلى جواره في الشاحنة وهو يعوي لجنود نقطة تفتيش: "كاولية، كاولية. بوس وكرص، دك وركص".

كان هذا الشعار مكتوبًا في حي الفوّار على بعض الأبواب والجدران المبنية من الآجر والطين والصفيح والحديد المرمي وكسر الزجاج فوق الجدران. هذه اللغة المنتهكة أمر مألوف في عالم المخلوقات المحقّرة ورد على الاحتقار. الوقاحة هنا ليست ترفيها أو مزحة ولكنها رد على الوقاحة العامة. للغجر لغة مشفرة فيما بينهم غير اللغة الأصلية (الرطين). حين يحاولون طرد أحد الزبائن المشاكسين يقولون له "الشرطة قادمة" وحين يقول غجري لآخر "غربال" فهذا يعني أنّ هذا الزبون ثقيل، وحين يقول أحدهم لآخر "قهوة مرّة" فهذا يعني أنّه صيد دسم. تسمى هذه اللغة التي تختلف من قبيلة إلى أخرى، ومن دولة الى أخرى "الباترين" وكان الغجر في

أمكنة أخرى من العالم يتركون خلفهم كدلالة وعلامة إلى من خلفهم أو للذكرى بعض العلامات مثل وضع أغصان على الطرق وشدها من النهايات أو ترك قماش أبيض في مكان يدل على الطريق الذي يمضون فيه.

حين سكر حسين مردان تماما مرة وكانت الوحيدة كتب تحت شعار (دك وركص الخ) اسم مؤسس حزب سياسي معروف ولم نتمكن من إزالته بكل أنواع الحك والمحو والغسل إلا بإزالة الآجرة التي تحولت إلى نافذة صغيرة كانت آخر شيء رأيته حين انتقلوا للمرة الأخيرة من الفوار إلى حي الطرب في الزبير. في الأحلام المرتجلة في الطرقات مع هذه الفرقة الضالة التائهة على الدروب، كانت تلك النافذة تكبر وتنبثق منها رؤى وصور وأطياف بل وحدائق ومخلوقات وهمية تذكر بـــ(كتاب المخلوقات الوهمية) لبورخيس وربما تكون هذه الحكاية كلها تشبه حكاية (السيمورغ) في الكتاب نفسه، فلا تعدو أن تكون رحلة في الخارج لكنها رحلة بحث عن ذات مقصية ومنفية ومطمورة.

من لا يعرف عالم الغجر من الداخل يعتقد أنّ الدعارة صفة ملاصقة لهم وهذا خطأ شائع لأن الغجري يقتل في سبيل الشرف والخيانة. لكن عالم الكاولية سري وعميق ومغلق مثل أي عرق محاصر يعيش في غيتو أبدي بسبب العرق أو الأسطورة أو النظرة أو

العرف أو الوهم. كثير من النساء يهربن إلى مدن الغجر من أسرهن بسبب الخوف من القتل من حمل غير شرعي أو عشق محبط أو بعد إفلاس الملاهي أو الإغواء ويمارسن الدعارة تحت اسم الكاولية، ومرة حاول حسين مردان التحرش بياتريس، فقلت له همسًا وبحزم: "الكاولي وفيٌّ كالكلب يا مخرب ولكنه يجن عند خيانة الزاد والملح. أنت تبحث عن موت عاجل" يومها حذف الفكرة من تفكيره تماما أو في الأقل لم تكن مرئية ولكن ماذا سيحدث لو كانت الرغبات مرئية: الفشل والشهوة والحنين والحقد؟ قلت الحقد وتذكرت أنّ الكاولي وهو يبيع الطرب (الونسة) إلى الآخرين لكنه في أعماقه يشتعل بحقد عميق وجوهري مصدره احتقار الآخر المفجر لكل الكراهيات وهو يبيع الفرح والحقد في آن.

نحن كاولية الزمن الثوري الملطخ بالوحل والعفة الوطنية المريبة والجمال الرسمي البري القادم من مزارع الصبار والعاقول وجنرالات التصنيع العسكري والخردل الأصفر المخضر كرائحة التفاح. يقولون إننا غجر أو الهاستا، أو القرج، أو النور، أو قتلة هابيل وأنّ جدّنا هو من صنع مسامير صلب المسيح. ماذا يعني صلب المسيح أو أنْ تصنع مسمارًا لنشر الملابس أو صنع دولاب أو تعليق صورة؟ نحن كاولية "وأبونا كاولي وما تخمد النيران". و"عمت عين الوجاغ الماتوج ناره. هلبت مات جيفارا؟" لكن ما علاقة جيفارا بنار الكاولية وعشب الشواطئ ودوبريه ومظفر النواب ومضايف الخزاعل وكـــافـــكـــا

كعادة العجوز بلزاك كل شيء يمكن أن يتحول إلى سخرية وهي طريقة في انتهاك اللغة كرد على الانتهاك العام لحياة الغجري، كان يعلق على كل شيء بسخرية موجعة. قبل أن نسلك الطريق العام، طافت الشاحنة في شوارع الزبير وكان حسين مردان يلوّح للمارة قائلا بين وقت وآخر: "هذا من بني تميم، ذاك من بني عنزة، ثالث من الظفير، ورابع من شمر" وحين يقابل بتلميح سلبي يقول: "وهذا فرخ زبيري".

عند الخروج نهائيا قال وهو ينظر في المرآة الجانبية: "وداعًا سيدي الزبير بن العوام". طفنا في شوارع البصرة كوداع أخير وتلك كانت رغبة بياتريس المدلّلة: شارع الوطن، الاستقلال، دينار، أبو الأسود الدؤلي، الكورنيش، الجزائر الخ. ودعنا مدينة عتبة بن غزوان ـــ مؤسسها ٦٣٢ م ـــ وثورة الزنج في القرن الثالث الهجري. مرة أخرى نظر حسين مردان في المرآة الجانبية ونحن نغادر المدينة قائلاً: "وداعا عتبة بن غزوان".

بياتريس هذا ليس سفرًا بل هاوية. غني من فضلك على طريقة اديت بياف الفرنسية أو حمدية صالح ولكن لا بحر لنا ولا سقف. غني على طريقة أمّك التي قتلت في السابع من كانون الأول عام ١٩٧٢

وهي ترقص في مخيم "أبو شعير" وسجل مركز شرطة المنطقة الجريمة كحدث عابر كما في وثائق شرطة المسيب. غني. اللعنة على أطياف كارل ماركس وكاسترو وشيوخ الغجر. غني "كصيت المودة يا بويه"، غني ديميس روسيس (اتبعني). لكن إلى أين؟ ليس سوى الطريق القادم والأفق والريح لذلك سمونا: (أبناء الرياح).

أنا أيضًا تحولت إلى غجري تحت هاجس المطاردة ولا ينقص الشاحنة غير قرغولي من سلالة حياك كي يكتمل حفل التطهير. ملك ساساني جلبنا من الهند يقول جدك صاحب اللحية الميتة منذ جنازة مس بيل ومرور عربات العثمانيين للمرة الأخيرة في شوارع بغداد والطاعون المتكرر والكوليرا ولا ينقصه غير معايشة المغول.

سيطرة تلوح في الأفق. ماذا يحمل الأفق؟ لا وثائق ولا هوية ولا وطن ولا حنين. إلى من يحن الكاولي عدا الطريق والمنعطف القادم يحمل الحنين؟ حنين الكاولي ليس في ماضيه بل في المقبل من الطرقات. بياتريس أمك فوزية جبار قتلت بين يدي في مخيم "أبو شعير" في قضاء المسيب في بابل. لكن أحدًا لم يعرف هوية القاتل ولا هوية القتيل كما قتلت قبلها خيرية لطيف في تكريت في حفل وكما قتلت لميعة أمريكا ياور في بلدة الحصوة في قضاء المحمودية.

تساوى الجميع في زمن خروج الوحش من الذاكرة إلى الشوارع. لماذا هربتم أنتم من "الشراكة الغربية" في السماوة؟ من حي الطرب؟ من الفوّار؟ كاولية يقولون وتفسدون الناس غير المفسدين؟ ماذا تبقى بريئا في هذا المسلخ؟ البريء يقاوم براءته وحين ينتصر يتحول إلى قديس لذلك لم ينتصر بريء في هذا الوطن. قلت الوطن وأنا أقصد الأرض التي تمر فوقها الشاحنة. هذه الشاحنة لها علامة مصنع وجذور كما لأليكس هايلي "جذور" إلا نحن. بيشمركة ومعدان وكاولية وشيوعي بالشبهة. هي الريح إذن؟ نقطة تفتيش يا حسين مردان خذ بالك. قل لهم كما تعودت: كاولية،.كاولية ولا تقل أيّ شيء آخر.

قبل أن ننطلق رتّبنا حكاية كل واحد منّا: أين ولد واسمه الكاولي وعلاقته بالشاحنة حتى السائق الكردي هو كاولي أيضًا، وأنا، وبياتريس وزرياب والمؤرخ وبقية أفراد العائلة بالدم أو بالفجيعة.كل شيء، كل شيء، عدا الشاحنة الأجنبية والسائق يحمل إجازة سوق هو حق التملك الوحيد للكاولي لكن كوران يحمل أكثر من هوية مستعارة حسب المناطق لأنّه مطارد من الجميع.

حتى نصل إلى أربيل في الطريق إلى ديانا عند سفح زوزك وكلاو حسن وهندرين ونواخين وبحر الغرام والكاتيوشا التي كانت ترمي صليا من باب كلي علي بيك نحو الجبال العالية المنيعة في الطريق إلى كلالة

المعقل الأسطوري في حرب سنتي ١٩٧٤ – ١٩٧٥ علينا أن نحكي فلم تبق غير الحكاية.

اسمي زهران الكاولي. عوسج أعزل في برية. بياتريس أمّك ماتت وهي مذهولة مثلي أنا لكن القاتل وحده يضحك حين أطلق النار وحين ركب السيارة بعد أنْ شدَّ رباط الحذاء ونفض المقعد من الغبار لكنَّ أحدًا لم يعرفه أبدًا لأنّه يحمل كل الأسماء وأمّك كاولية مثل بدر شاكر السياب الذي صنع جده مسامير صلب المسيح لجنود هيرودس.

غنوا يا إخوة الريح، أبناء الطريق والمنعطف، والحنين القادم، والخيمة المؤجلة والطريق المنتظر. غنوا أغاني داخل حسن أو ثيودراكيس اليوناني المغفل: "أنتم لديكم دبابات، ونحن لدينا أغنيات، وكلّ دباباتكم لا تستطيع قتل أغنية واحدة" عجيب ثيوداريكس الكريتي. ماذا كان سيقول لو أنّه معنا الآن في الشاحنة؟

قبل أن ألتحق بالشاحنة بعد أن ضاقت الأرض، كنت في وداع صديقتي الإيطالية أجني كوروفسكي العاملة في الصليب الأحمر ـــ حين تسكر تسميه القضيب الأحمر ـــ بكت أجني على صدري كحمامة تنوح فوق منارة ضريح في مساء كئيب وهي تقول: "من سيحدثني بعد اليوم عن المعدان والمستنقعات والجاموس والأساطير

وحكايات ولفريد ثيسكر من كتابه "المعدان"؟ "أجني كوروفسكي تحمل الاسم نفسه لصديقة أرنست همنغواي الإيطالية التي تعرف عليها في مدينة ميلانو الإيطالية في الحرب العالمية الأولى وصارت تحمل اسم كاترين في رواية "وداعًا أيّها السلاح" التي تموت في الطريق هاربة مع فردريك هنري من الحرب.

أجني من ضواحي نابولي ومن ريف منطقة كامبانيا المشهورة بمراعي الجاموس والمستنقعات ومن أسرة معدان إيطاليين تربي الجاموس وتبيع الجبن الإيطالي الشهير الموزيريلا منتجة من قبل أكثر من ربع مليون جاموسة. تركت أجني خلفي إلى شاحنة غجر وتيه مذهل لأنّك لا تعرف ماذا سيحدث في المنعطف القادم.

ماذا سيحدث في المنعطف القادم؟ الحنين للطرقات والنجوم والذاكرة ووداعًا أجني أو كاترين من فردريك هنري الغجري بنسخته المحسنة والجديدة، راوي الحكايات العراقي الطريد بلا ذنب ولا جريمة ولا حزب ولا عشيرة ولا وطن ولا سرير ولا حلم في لحظات الضيق الجسدي. الحدود مقفلة كالنصوص والأسلاك والسجون والأحلام والرغبات.

كنا نجلس للمرة الأخيرة أجني وأنا في حانة كاردينيا في شارع أبي نؤاس وكنت غارقا بكآبة عميقة من مطاردة لا معنى لها بعد أن عدت قبل أسبوع من الجبال مُنهيًا الخدمة العسكرية التي استمرت

ست سنوات لأواجه وضعا شاقًا ومحرجًا وصعبًا. أنا إذن علف للمدافع في زمن الحرب وسجين في أوقات السلم. قالت أجني في محاولة لتبديل الحديث: "جوّ الحانة هادئ يشبه بركان فيزوفيوس في نابولي عاصمة إقليم كامبانيا في ساعات خموده. كنت أفكر في أن ترى مستنقعات كامبانيا ومراعي الجاموس ونزور جزيرة كابري على خليج نابولي. هل تحب البيتزا؟ نابولي تشتهر بها. هناك مقهى يعود إلى القرن التاسع عشر اسمه جران كافيه جامبرينوس مُطلٌّ على ساحة بياتزا ديل بلبيسيتو ورائحة قهوة الكافيين تُشمُّ من مسافة بعيدة من المقهى. قل لي أين ستذهب؟"

– "كل الرعب في هذه العبارة. أفكر في عائلة بياتريس الغجرية".

في هذه اللحظة نظرت أجني عبر الواجهة الزجاجية نظرة مشوبة بكل احتقار العالم "أمر غريب أن تجد نفسك فارًّا مع غجر متجولين في هذه الأرض الجميلة. لماذا لا تهرب إلى الخارج؟ لا وجود لك في هذا المكان وربما لا وجود لك في غيره أيضًا. البراءة ورطة حقيقية هنا وهناك. بماذا تفكر؟".

قلت وأنا أتأمّل نوارس النهر المحلقة فوق دجلة والجسر "وصفت الهدوء في كاردينيا ببركان فيزوفيوس وهو وصف يتجاوز الحانة أيضا. أجني لا تشغلي بالك في هذا الأمر، إنّه يحدث كثيرا هنا وليس

جديدا. من صحتك"، ثم قلت بضع جمل إيطالية من بقايا السرير وحانات بغداد والمشي" مي سنتو مالي ــ أشعر بالتعب" قالت هي أيضًا بتلقائية الاستغراق منادية عامل البار: "ال كونتو بيرفا فوري، الحساب من فضلك" قلت" ليس هنا من يفهم الإيطالية"، وضحكت أجني بحياء أنثوي رقيق كما لو ضبطت متلبسة بخطأ. قالت مؤكدة إنّ الأمر لم يكن سهوا، "أونا بينا؟" قلت: "نون كابيسكو ــ لم أفهم" قالت بالعربية: "هل لديك قلم؟ سجل رقم هاتفي في نابولي ربما تحتاجه يوما"، قلت: "لا حاجة لقلم، قد اعتقل ويتحول إلى تهمة لك. سأحفظه". عند باب كاردينيا قالت أجني بصوت تالف: "وداعا فردريك هنري"، قلت: "وداعا كاترين".

مضيت في الشارع حاسًّا بفراغ داخلي كالهاوية. شعرت أنّني أعزل ووحيد وحدة مطلقة وضاجّة كغزال محاصر بقطيع ضباع مزمجرة في مكان غابي موحش في الليل. حسين مردان، قل لجنود السيطرة القادمة: كاولية، كاولية، لا تقل بيشمركة وشيوعيين، لا ينقصنا غير حائك وكولونيلات ثكنة متقاعدين ومنشقين وشعراء صعاليك وبدو رحل ودراويش كي تكتمل المسبحة، مسبحة اشتراكية الطريق الجديد، وليالي بغدادي الحانة المعروفة في شارع أبي نؤاس الذي يشوّه منظره الحالم والرومانسي الوجه الحضاري للوطن ــ الذي لا ينتمي نزلاء هذه الشاحنة إليه ــ وفكروا بإزالته مرات كي يجد نفسه مثلنا في شاحنة الحنين المرتقب والمؤجل والمنتظر والمحتمل.

أنا من اليوم ابن الاحتمال الخطر: احتمال أن يقبض علي متنكرا في شاحنة غجر "لماذا يستكثرون عليّ هويتي الجديدة؟" احتمال من نوبة سكر لبلزاك ويعلن فيها كل شيء، احتمال أنْ يكون السائق مأجورا لطرف ما ونضيع. مضحكة كلمة "نضيع" لأنّ من يضيع يجب أنْ يكون موجودًا كآدمي وليس فارًّا في شاحنة تمضي إلى أقدار مجهولة.

قلت للعجوز والحكواتي ومؤرخ العائلة وهذه البلاد حين انتقلت إلى جانبه: "بالمناسبة، كارلوس فونتيس ــ تيمّنًا بالروائي المكسيكي لأنّني أبدل الأسماء حسب المزاج والموقف ــ هل صحيح أنّ الغجري لا يؤمن بالقدر بل بالصدفة؟"

رد سريعا: "ليس دائما".

قلت معاتبا ونحن نشرب كؤوس العرق والشاحنة تمضي والمدن تتراجع إلى الوراء مع الأشجار والمنازل عبر نافذة صغيرة في الشاحنة: "لا تتردد في قول الحقيقة. سوف أستعمل من الآن كلمة غجري معك بدل كاولي مع أنّ الأمر عندي سيان. ليس من عادة ملك مخلوع مثلك أن يخاف من رأي ونحن في قارب "طرايد" واحد. هل تعرف أنّني كنت مرة في حي الفوّار في الديوانية حين قتل غجري أحد الزبائن وعندما سئل لماذا؟ قال الصدفة. يومها ضحكت لأنّني أعرف أنّ الغجر لا يقرؤون ولم يسمعوا بكامو ولم يعرفوا ميرسو. هل سمعت بذلك أنت؟"

قلت الأشجار تتراجع وهي تتراجع فعلاً ولكن الطبيعة الصامتة عبر نافذة الشاحنة تبدو مريبة ومشحونة بالاحتمال. وظيفة الأشجار تغيرت: ليست طبيعة كلود مونيه أو فان غوغ أو غوغان بل تخفي ثكنة أو مبنى رماديَّ اللون ومنعزلاً بلون مغاسل الموتى الذي اختبأت فيه في الحرب في ديانا. الطبيعة مثلنا منفية لأنَّ الخوف يشوِّه كلَّ شيء، البشر والأشجار والطرقات والريح.

"هل يحدث الانتصاب؟" تقبَّل السؤال كأنَّه على هذا الشكل" هل تشرب كثيراً الماء في الصيف؟" وهو من أسئلة الفراغ وفقدان الرغبة.

أجاب: "في النوم".

وأضاف: "دائما الحلم نفسه في بلدة خليفان قبل أربعين سنة تقريبا".

وتابع وهو يمصّ سيجارته بقوة: "مع ريم أعود شابًّا".

واذ لم أجب كرّر: "في النوم يحدث هذا"

سألته شارداً ــ"ما هو الذي يحدث في النوم؟

"الانتصاب طبعاً".

قال لي العجوز مرة يوم كنت أزورهم قاطعًا عشرات الكيلمترات إلى حي الفوّار أنّه كان راكبًا حصانًا حين أوقفته دورية شرطة على تخوم المدينة و لم يسألوه بالطبع عن الأوراق الرسمية لأنّه

معروف لديهم في الأفراح وحفلات الطرب ولأنه كاولي بلا وثائق ولكنهم سألوه كيف حصل على "الحصان العراقي" لأنّ حق الملكية متاح للمواطنين وليس "للأجانب" والكاولي مصنف على هذا المستوى القانوني.

- "أجنبي؟ والحصان عراقي؟" قال لهم نافرا كحصان مستفز "كيف يا إخوان وأنا ولدت على هذه الأرض؟".

قلت مع نفسي إنّ الأمر واحد والفوارق بسيطة وقد يكون هذا هو السبب الذي جعل جان جينيه يشمت بالفرنسين عند احتلال باريس لأنّ الاحتلال يفرض مساواة قذرة في الذل والخوف والطبقات والمحو. لكن ما علاقة هذا الكاولي بجان جينيه وباريس والنازية والهوية؟ ما هي علاقته بالذاكرة العامة وهو لا يتذكّر شيئًا دون أن يكون قد مشى فوقه؟ ذاكرته في أقدامه وهويته المكان الآني. قال لي مرة بعد مقتل زوجة ابنه وأم بياتريس إنه لم يدفن شخصين من العائلة في مكان واحد. المقبرة والأمل والولادة والنوم والخطر والمستقبل في الأمكنة غير المنتظرة، في الطريق القادم. هوية الغجري ليست في العرق بل في التشرد كما أنّ الألم والرعب والذل العام يخلق هوية مشتركة.

جذوري الجديدة من اليوم هندي مرّ أجداده بكابول بناء على طلب ملك المدائن الساساني بهرام جور من ملك الهند شاتكور في

النصف الأوّل من القرن الخامس الميلادي الذي أراد إمتاع وتسلية رعيته بهؤلاء المغنّين الفقراء مع آلاتهم الموسيقية فأرسل عشرة آلاف من قبيلة لوري حسب المؤرخ حمزة الأصفهاني الذي كتب يقول إنّ قبيلة لوري "تقضي نصف النهار في العمل ونصفه الآخر في الرقص والغناء والموسيقى"، وأكّد هذا الرأي الشاعر الفردوسي في الشاهنامة.

أنا إذن كاولي، أي كابولي من كابل الأفغانية في طريقي إلى إيران ثم العراق. قال لي العجوز بلزاك مؤرخ العائلة إنّ عليَّ أن أقول "تيدوها" لكل غجري حقيقي يسألني عن الجذور لأنَّ هذه الكلمة هي السر والعلامة ولا يعرف العجوز أنّني مغرم بالعلامات والإشارات والأشياء من قراءات ألان روب غرييه وشتراوس وعلوم الأنثربولوجيا والأعراق والدم مع أنَّ الأمر ليس حكاية أنثربولوجية بل حكاية قهر بشري معتق.

قال العجوز: قدمنا موجات متتالية للعراق: الأولى أيّام الملك الساساني بهرام جور منتصف القرن الخامس الميلادي والأخيرة في القرن الثامن عشر عبر إيران في عهد كريم خان زادة حيث كنا نعيش خارج مدينة شيراز كما نحن اليوم نعيش خارج المدن "الطبيعية". بهذه الطريقة حفظت جذوري الجديدة كي لا أقع في مشكلة مع نقاط التفتيش ومراكز التحقيق ودوائر الأمن وغيرها. أنا إذن بفضل

الإيديولوجيا الثورية هندي غجري من بقايا موسيقيين فقراء مجلوبين للتسلية والمتعة إلى بلاد الرافدين وفارس ثم عبروا إلى التيه عبر تركيا والعالم.

الشاحنة من الخارج في هذا الصيف المهلك تشبه لوحة سوريالية متنقلة كما لو أنّ مارك شاغال عبث بألوانه على واجهاتها الأمامية والخلفية والجانبية وهي من صفات عربات الغجر عبر التاريخ: علامات ورموز وشارات ومناظر طبيعية وغير طبيعية ورسائل غرام وإيحاءات جنسية ورسوم مهرجين ونساء راقصات في أوضاع شبقية. أسماء مدن ومخيمات للغجر: الفوار، أبو طراريد، السحاجي - نينوى، ابو شعير- بابل، قبل ان يُهجّروا منه سنة ١٩٧٦، حي الطرب في الزبير، الشراكة الغربية في السماوة، العثمانية الأميرية في الناصرية، دهوك، نينوى، أربيل، السليمانية، كركوك، الكمالية - بغداد، الفوار، كنعان... الخ، لكن السلالة لم تسكن النجف ولا كربلاء بسبب التقليد الديني ولا الأنبار بسبب التقليد القبلي.

نحن إذن سبّة. جرب على النقاء والجمال البري والأخلاق. هذا ما أكده قاتل فوزية أم بياتريس بعد أن انتهى من إطلاق النار وشدّ رباط الحذاء ونفض المقعد من الغبار في اللحظة التي كانت الضحية تسقط بصمت وسرية الجرائم الكبرى المهملة إلى الأرض قبل أن يأتي زمن التعقيم القسري المموّه كلقاح ضدّ الأمراض. يجب أن نزول من

وجه الأرض كي تصبح الأرض أكثر عدلاً وجمالاً وبراءةً – كانت خيرية لطيف تردد قبل قتلها عبر التصريح والتلميح هذه الجمل وهي تغني بسرية لغة التيدوها المحملة بالكبت والحرمان والألغاز والرموز والتوقع والتوق.

نحن لا نسافر إذن هذا اليوم في أرض بل في تاريخ وهذه الشاحنة علامة الغجري واليساري والكردي والعازف والمشرد والطبال والعجوز والمرأة والطفل. نحن ثلاثة أجيال نرحل في شاحنة تاريخ دموي متنقل فوق الطرق والأزمنة كبوم ينعق فوق خرائب غسق التاريخ، كثكنة معدات حربية محطمة في نهاية معركة شاهدتها قبل سنوات في معسكرات أربيل في نهاية الحرب. ثلاثة أجيال: عازف ربابة وطبالون بعد أن انتميت إلى الفرقة كضارب طبل الخشاب وأحيانا ينضم إلينا السائق حسين مردان أو عبد الله كوران، وثلاث راقصات، طفلان، والعجوز بلزاك المؤرخ والحكواتي والتاريخ الشفوي. شاحنة تحمل ثلاثة أجيال مع أثاث غجري متنقل.

هذه هويتنا للعبور في هذه الأراضي التي ولدنا فيها عبر نزوة ملك ساساني من أجل المتعة. نحن من ذلك اليوم نبيع الموسيقى والطرب والغناء والغرابيل وصيد القبج في الجبال والأسنان الصناعية وقراءة الكفّ والتسوّل والحدادة والرقص مقابل مكان هادئ للإقامة وضوء

فانوس وعربة نقل قبل زمن الشاحنة والمقطورة والكابينة والمنزل العابر في مكان عابر.

حسين مردان أو كوران أو ستالين في لحظات الخطر، يحمل إجازة سوق كغجري وحسب قرار مديرية المرور العامة، الدائرة القانونية، الرقم ٧٩٠٩ بتاريخ ٨/٥/١٩٧٥ يحق للغجري امتلاك إجازة سوق وهو قرار التمليك الوحيد في تلك الفترة للغجر، وحسين يتلاعب بالإجازة حسب المدن والأهواء والمخاطر الحقيقية أو المتوهّمة.

قلت للعجوز بلزاك ونحن نحمل الأمتعة من حي الطرب: "لماذا الرحيل إلى ديانا والأكراد لا يحبون الغناء الغجري ولا يفهمونه ورقص النساء مع الرجال ليس غريبا عليهم لأنّهم تعوّدوا الدبكة الشعبية في الأفراح؟".

قال – الخوف والعزل.

قلت معاتبًا: "لكنني كنت هناك كجندي ولا أحب عيش التجربة مرة أخرى". بدا هذا الاحتجاج الهادئ وقحًا وغبيًا لأن أحدًا لم يجبرني على ذلك والعائلة تجازف بمصيرها في قبولي في الشاحنة.

نزلاء الشاحنة:

- مديحة صالح: راقصة ومغنية وزوجة عازف الربابة فالح حوم الملقب بزرياب ووالد فرح وزوج القتيلة فوزية جبار.

- نوال جياد: راقصة ومغنية، زوجة ضارب الزنجاري مزاهر حوم ونتبادل الأدوار أحيانًا، وأم لطفلين ذكرين.

قال لي العجوز بلزاك يوما: "هذه آخر سلالة طرب في العائلة".

- فرح فالح حوم أو بياتريس: راقصة شابة في العشرين من العمر والباقي تجاوزت أعمارهن الثلاثين لكن على فتوة غجرية وجمال بري هادئ ومطمئن في إثارته كنعاس عذب تحت شجرة صيف.

- العجوز بلزاك أو حوم: يطلق على نفسه اسم بندقية عثمانية للعتق والهرم وعاش تاريخ العراق منذ أوائل القرن العشرين وتعلم القراءة والكتابة في بيت أحد وجهاء بغداد في عشرينيّات القرن وارتحل شرقًا وغربًا على قدميه أو على خيول أو بغال أو عربات. مؤرخ الغجر والعائلة والأرشيف الشفوي الوحيد الباقي. عمره نادر بين الغجر. نام في العراء وفي الخيم وفي القصور وتشرد ومرّ بأزمنة هدوء لكن لعنة هوية الكاولي تطارده من زمان إلى زمان ومن ومكان إلى مكان.

- فالح حوم: والد فرح أو بياتريس. عازف الربابة أو زرياب مع ألقاب مرتجلة حسب الظروف. زوج مديحة صالح. ثلاثيني أسمر

مفتول العضلات كمصارع. حين يعزف ينام على الربابة كفارس جريح ينوح بكل عذابات العالم.

– مزاهر حوم: منتصف الثلاثين من العمر. شقيق فالح حوم زوج نوال جياد، أب لطفلين، ضارب زنجاري وأحيانا نتبادل معه كوران وأنا ضرب الزنجاري وأنا سعيد بهذا اللقب المغري.

– أنا زهران الغجري الجديد: كاولي أزمنة الحداثة والطريق الجديد، زهران اليتيم، صحافي ثلاثيني، هارب بشبهة شيوعي، صرت ضارب طبل خشاب وزنجاري بالتناوب كعلامة على نجاح الاشتراكية.

– حسين مردان أو كوران السائق الكردي: أربعيني بملامح قبج جبلي في فخ. أعزب ومطارد ومزور هويات بارع. يتكلم بكل اللغات المحلية من كردية وعربية وتركمانية وبكل لهجاتها ويتقمص كل الاديان كالغجر حسب المنطقة. عشق عالم الغجر كما يقول حتى يوم كان "حرًّا" في التنقل، وتعرف على عائلة بلزاك العجوز مثلي في زيارة عابرة ولم يفارقهم إلا نادرًا، وصار سائق العائلة ومنقذها في لحظات الخطر والهرب إلى مدن جديدة وحوّل سيارته إلى بيت متنقل في محلات الحدادة في النجف. عزل ثلاث أُسر في الشاحنة بحاجز خشبي يفتح بباب: فالح حوم وعائلته في مكان أو غرفة، ومزاهر حوم والأطفال ونوال في غرفة وسطية، والعجوز بلزاك وأنا في المكان الأقرب إلى حافة الشاحنة الأخيرة وفي بعض الليالي ينضم إلينا كوران بسبب الأرق.

– الطفلان: رغدان ٩ سنوات وصقر ٧ سنوات.

الشاحنة على الطريق العام في بهاء الشمس وحرارة الطرق، وتلوح الحقول الخضراء مزروعة في الأراضي المفتوحة بين الخرائب والثكنات والمستنقعات الغرينية وكانت بعض القرى، في الصباح، لا تزال غارقة في الضباب الريفي الناعم القادم من النهر وتظهر بين وقت وآخر تلال ومزارع وحقول قصب وقطعان جاموس وأبقار وسهول ملحية وأكواخ طينية ومآذن بيضاء ورايات ملونة وسراب يعكس الجدران والمزارع والحيوانات ويعيد تشكيلها على صور شبحية ومقابر صغيرة وأبراج مراقبة وحقول طرفاء وأشجار نخيل وعوسج وشيح وخباز وأجمات صغيرة ومزارات. ويرتفع في وهج النور دخان أسود وسط الأكواخ وخيول ونساء يحملن جرار الماء على رؤوسهن وقوارب قديمة مرمية في المزارع وأكداس تبن في النور الأصفر كلوحة لفان غوغ بالأصفر الذهبي المتوهج وأسراب قطا محلقة في الضوء الباهر نحو النهر وبرك تتلألأ تحت النور ببريق حار وتستلقي السهول الجنوبية الصامتة المشعة كحديقة كبيرة. كان الأفق السرابي يحوّل المدن القادمة البعيدة إلى صور مرتجلة تعكس مشاعر نزلاء الشاحنة.

قبل منتصف النهار كان السراب الذهبي يعكس من بعيد جدران مدينة العمارة أو ميسان السومرية – بالآرامية تعني مياه المستنقعات، مي آسن – وكان علينا أنْ نستريح، في مساحة هامشية مثلنا، تحت ظلال أشجار من وهج الشمس والحرارة المهلكة وربابة فالح حوم تحاول عبور الجبال ونحن في قلب السهول الجنوبية التي تستحم عارية في الضوء المحترق. كان يعزف ويغني "هلي ما لبسوا خادم سملهم"، وعن "جبال مكحول" وعن "الوتّة الخفية". لا أحد في هذا العراء الأبيض الصريح الطليق يسمع نحيب المغني الذي يضع قلبه في ربابته ويحتضر على تخوم مدن تطرده من النوم والضحك والمسرات وهو يعوي كذئب وحيد أمام السهول المائية اللامتناهية حيث لا شيء في هذا الغمر البدائي غير نيران المواقد والصمت السهولي العميق. لذلك كتب ولفريد ثيسكر في كتابه (عرب الأهور) مبهورا بهذا البهاء البري المثير: "ضوء النار المنبعثة من المواقد، صياح الأوز، عراك البط وقت الأكل، صوت غناء الصبية الآتي من الظلام، المشاحيف التي تسير مواكب تمخر المياه، غروب الشمس التي ترى قرمزية من خلال دخان القصب المحروق، الطرق المائية التي تندس عميقًا في الأهوار، الرجال العراة في مشاحيفهم يحملون بأيديهم رماح الصيد، بيوت القصب التي بنيت فوق الماء، انعكاس النجوم الماسي على صفحات المياه الداكنة، ضجيج الضفادع، المشاحيف العائدة إلى أماكنها، وقت المساء، الصمت، كل ذلك جعلني أعود ثانية لأشارك في حياة مثل هذه".

تحلق الطيور في سماء ميسان من جهة الشرق في طيران احتفالي زلق بكل أنواع الطيور: العنبري والرمادي والفضي والمسكي والزنكي. من هذه المستنقعات المائية السومرية مرّ التاريخ البشري: مرّ الإسكندر المقدوني في القرن الرابع قبل الميلاد، المغول، الميديون، الآشوريون، الفرس، الزنج، القرامطة، الصوفيون، الجواسيس، الانثربولوجيون، الاتراك، البريطانيون، المستكشفون، الرحالة: ويلفرد شيفر، تشارلس دوتي، جون فيلبي، جيرتود بيل، بروتروم ثوماس، النرويجي ثور هيردال كافن يونغ، ايما نيسكون، والخ. قال كافن يونغ "إذا أردت الجنة، فهي موجودة هناك بين دجلة والفرات". وأضاف في كتابه: العودة إلى الأهوار: "كنا نخرج أحيانًا من غابات القصب إلى المياه الفسيحة المضاءة بالشمس والتي من سعتها تتصل بحافة السماء... حللنا في قرى تتكون من جزر صغيرة لا يمكن التنقل بين أكواخها دون زوارق لأنّها مقامة على الماء... كان جمال المكان الطبيعي ساحرا. طيور الرفراف المرقطة ما تنفك تغطس لالتقاط فرائسها، أسراب من الحمام تحلق حول رؤوسنا، مجاميع من اللقالق بيضاء كالثلج، تتصيد ببهاء، وفي السماء لا بد من وجود عقاب واحد على الأقل. القصب الذي اجتزناه يضج بالحياة البرية: كلاب الماء، والطيور كمالك الحزين، الغرة، الصداح، والحساسين الملونة، الغاق، إضافة إلى الخنازير البرية الخطرة. في أحيان كثيرة، ومن غابة قصب تبدو مهجورة، ينطلق صوت بشري في فضاء الصمت، لشاب يغني عن الحبّ وهو يقطع الأسل... لتلك العزلة الهائلة، حيث قاد

رجال أور زوارقهم، وحيث أقام الإله العظيم مردخ، كما جاء في الأسطورة السومرية، منصّةً من القصب على سطح الماء، ومن ثم خلق العالم، وقع عاطفي شامل".

قال بلزاك مسرورا عند رؤية أسراب الطيور وهو يتذكر كيف كان يذهب هو الصبي مع الوجيه إلى مقهى عزاوي على ظهور الخيل في عشرينيّات القرن "لمشاهدة خيال الظلّ وهو مسرح صغير، وفي الليل يتحول المقهى إلى ملهى للرقص أو نذهب إلى مقهى العبد في الباب الشرقي في الأورفلية بالقرب من "القولّغ" أي مركز الشرطة المحاط ببساتين الخس وتكون الزيارة في المساء لأن المقهى في هذا الوقت يزدحم بالزبائن القادمين على الخيول وكنا نشاهد مسابقات إطلاق الطيور إلى مسافات بعيدة ومدن وكان عازف الربابة يجلس قرب المقهى وهناك الحكواتي "القصخون" وهو يروي حكايات أبو زيد الهلالي وعنترة بن شداد وألف ليلة وليلة".

ضحك العجوز بلزاك وتابع: "لم تكن عادة حلق الشوارب منتشرة لأنَّ المثل البغدادي على لسان المرأة يقول: أنا تحت شاربك. في الليل تضاء الفوانيس من قبل عمال البلدية حتى الصباح لأنَّ الشوارع كانت مظلمة وكنت أرافق الوجيه إلى حمام الباشا في الميدان في النهار أو نذهب إلى إسطبل محمد فاضل باشا الداغستاني في باب المعظم للتفرج على خيول الصكلاوية والكحيلة والحمداني الخ".

في المساء وبعد أن برد الظلُّ والهواء انطلقنا في الطريق العام تاركين المدينة خلفنا مشعّة بلون وردي متوهج هو لون الغسق المقترب، وكنا قبل الوصول إلى نقاط التفتيش ننبّه حسين مردان الذي كان يهتف بسبب سراب الظهيرة لكل شجرة وحيوان ومنزل على جانبي الطريق ومن مسافة بعيدة: كاولية، كاولية. قلت له: "حتى نصل الكوت، سيكون اسمك لوركا. والآن اسمع بالإكراه: (أواه، يا مدينة الغجر! - في زوايا الدروب، رايات - أطفئي أضواءك الخضر - فالحرس المدني قادم - أواه، يا مدينة الغجر! - إن في حنايا الدروب، رايات - فأطفئي أضواءك الخضر - فالحرس المدني قادم - أواه، يا مدينة الغجر! - من يراك ولا يذكرك - دعوها في منأى عن اليمّ - وحذار أن تزوّدوها بأمشاط تسرح بها شعرها).

تابعتُ "إنّه الغجري لوركا يا مخرّب". ضحك كوران سائق شاحنة التاريخ المخفي ضحكة مدوية لرنين الاسم وقال دون أنْ يفلت سيجارته من شفتيه: "هل هو غجري مثلنا أم شيوعي هارب في شاحنة كاولية؟" قلت: "كان عليك أن تضيف: أو عضو حزب جبلي مسلح ومطارد منه ومن السلطة".

كان الباب الخلفي للشاحنة مفتوحا على المساء والطريق والمنعطف وكان فالح حوم يجلس صامتا ومنهكا من الغناء والتوقع وعلى ركبته تضع فرح أو بياتريس رأسها في وداعة حمامة آمنة أما مـــزاهر حـــوم

فكان يحدق في كل مكان كما لو أنّه يحاول أنْ يعثر على مكان أو مجتمع متخيَّل لا وجود له إلا في المخيلة.

صمْتُ العجوز بلزاك نوعٌ من تأمل الداخل وهو أمر غير مألوف في طبيعة الكاولي المشغول بالخارج ــ الخارج هو الأصل، الخارج هو الخبز والأمان والسعادة والموت والأمل والرعب والداخل صدى. بلزاك بعد عمر طويل لا يخاف من خسارة أو احتمال. كنت أفكّر باللغة التي يتخيل العالم بها: كيف يكون عالمه الغامض واضحًا لديه؟ كيف يخلق هذا التوازن هو الحطام البشري في شاحنة على مشارف موت مقترب؟

مرة قال بلزاك إنّه لا يستطيع أن يتذكر أو يفكر بدون سماع موسيقى ترافقه من الداخل. كل ما سمعه خلال حياته في عزف مستمر في الليل والنهار يرنُّ في رأسه كما أنّه لا يستطيع أن يتخيل امرأة عرفها دون أن يتخيلها وهي ترقص ذلك الرقص المهدم الوحشي بالإيقاع المتواصل على طبل مستمر وبنقر إيقاعي موحد وحين تصل الراقصة إلى الأرض يصل الجمهور المتفرج إلى ذروة الهياج لكن أحدًا لا يفكر في هذا العناق الرمزي بين الراقصة والأرض، بين الموت والميلاد، وهو رقص طقسي عريق.

كلام بلزاك العجوز فتح بابًا أوسع للتفكير في هذه الموسيقى الغجرية العنيفة والرمزية والاحتفالية. مثلا رقصة (الهجع) تبدو وكأنها

الرد العفوي العلني على الانتهاك وهي تقترب من ناحية الوظيفة والرمزية والعنف من موسيقى الزنوج (راب) وجذور موسيقى (البلوز) و (هيب هوب) وغيرها. الربابة تقابل الجاز، كما يقابل الطبل الصنج. لم يبق للكاولي، كما لم يبق للزنجي غير الرقص المفتوح، خارج كل نسق ونظام، لأنّ احترام النسق يعني قبول الظلم وقبول الواقع المؤسّس عليه. ما الفارق بين حيّ هارلم وحيّ الفوّار؟

قلت والغسق الرماني ينفتح على الأراضي المكسوة بلون ليلكي ورائحة الأعشاب البرية والزهور والأشجار تعبق في كل مكان ممتزجة بحرارة الإسفلت: "أمرٌ مدهش أنْ تعيش في بغداد في كل الأزمنة و...."قاطعني قائلا: "بل عشت حتى مع شقاوات بغداد. خذ مثلا أشهر شقاوات بغداد تلك الايام هو عمر الشبلاوي الذي تخافه الأرض. كان يقول لمن يحاول التحرش بي أنا الصبي الكاولي إنّ هذه ليست من المراجل. هذا ليس غريبا على هذا الصنف من الرجال لأنّه هو الشبلاوي كانت نظرة الحكومة إليه دونية واختار أنْ يواجه السلطة العثمانية بنفسه وسجن في سجن القلعة حتى احتلال بغداد من قبل بريطانيا وحين قاوم الاحتلال سجن في خان دلة حتى فرَّ منه وظلّ مطاردا وقبض عليه في النجف وسجن في الحلة لكنه فرَّ منه أيضًا وقتل شرطيين. على فراش المرض الأخير قال هذا الزهيري في رثاء نفسه: "الدهر ياما جيوشه بالمراتب عجب - حتى عجبهم عن طريح المودة عجب - يا رفكتي لو طحت ما هو عليّ عجب". وتابع العجوز

بلزاك: "غير الشبلاوي هناك عباس السبع وصالح بن الدهان وطه بن الخبازة والشقي سمرمد ومودي وإبراهيم عبدكة وغيرهم. اسمع يا زهران هؤلاء ليسوا بعيدين عن حياة الكاولي. هل فهمت؟"

كنت تلك اللحظة أفكر في المترل العائلي الذي حلمت سنوات في النوم فيه – حلم النوم العصي – مرة واحدة بهناءة وسمعت العجوز بلزاك يسأل: "أين أنت الآن؟"

قلت: "في المترل، وأنت؟".

أجاب: "أفكر في عبور المدن إلى ديانا".

هذه ذهنية الغجري: الحلم في القادم والمدن التي في الطريق وليس في المدن القديمة. حنين الغجري في المستقبل وحنيني في الماضي. هو يحلم في المنعطف المنتظر وأنا أحلم في المنعطف السابق. ذاكرته في الأمام وذاكرتي في الوراء. كلمة حنين هنا ملتبسة: الحنين إلى شيء يعني التوق. التوق ليس إلى شيء أو كائن موجود في الحاضر بل إلى شيء أو كيان موجود في الماضي. الحنين يشترط الفقدان. كيف يمكن الحنين إلى شيء غير موجود في الماضي ولا في الحاضر، بل في المستقبل؟ حلم الغجري يتحقق بالتجوال، السفر، العربة أو الشاحنة أو الخيول. إنّه حلم جواب. حلم بمكان. عندما يتحقق حلم المكان تصبح الأحلام الأخرى ممكنة.

هتفت بكوران: "قل لهم كاولية، كاولية".

الفصل الثاني

طريق الغزاة

حلّ الليل ومصابيح القرى معلقة كأحلامنا في فضاء ساكن أزرق ومع الضوء الطري تحلُّ مشاعر المساءات العائلية. إنّه الحنين والمنفى الداخلي. دخان يطلع من داخل المنازل المضاءة بضوء قمري شفاف والمرتفعات تلوح على الجانب الشرقي من سلسلة جبال حمرين. كان الطريق يبدو كما لو أنّه يصعد إلى السماء.

قلت لبلزاك: "إنَّ كلَّ ما أحتاجه الآن هو مكان للنوم".

كان رده سريعًا "هل تدري؟ إنَّ كلَّ ما أحتاجه الآن فرس كحيلان. كنت أفكر في ذلك الآن".

مرة أخرى حلم راكض لكن هذه المرة على فرس كحيلان وحلم مضاد في سرير نوم. حلم الغجري في الجري وحلم غيره في السكون. طمأنينته في الأحلام الراكضة وغيره في الأحلام المستقرة. هو ولد في برية عابرة وغيره في مكان ثابت. حلم بلزاك العجوز في الوصول وحلم غيره في الذاكرة.

نام نزلاء الشاحنة وتجاوزنا مراحل الليل: الشفق والغسق والعتمة والسحر والغبش والغلس والفجر والصبح والصباح. يسهل تصنيف هذه المراحل لكن النائم في شاحنة في عراء ليلي على طريق عام يصنفها على مقياس آخرَ بين الشهقة والتوقع والخوف والقلق والنعاس والكابوس والاحتمال الخ. بلزاك نائم في الظاهر لكنه مفتوح العين كذئب، وخطرت لي لوحة الغجرية النائمة لهنري رسو التي تصور غجرية نائمة فاحمة الوجه وإلى جوارها كمان وجرة ماء بلون رملي هو لون الصحراء التي تبدو في خلفية اللوحة تحت قمر أبيض ملصق برنين حسّيٍّ طفولي بسماء داكنة وإلى جوار الغجرية أسدٌ رملي اللون يقترب باحتراس منتصب الذيل وهو انتصاب متخيل لا يحدث في لحظات الافتراس الحقيقية ومن المحتمل أنّ الأسد هو حلم المرأة وقد تحور على هذا الشكل. لا يبدو أنّ الغجرية ميتة ولو كان الأمر كذلك لما اقترب الأسد منها لأنه ليس من طبيعة الأسود (لكن هذا يحدث في الفن) ومن المؤكد أنها نائمة وتحلم بأسد في وضعية بذيل منتصب في صحراء مجهولة تحت قمر أبيض وعلى أرض رملية ومع كمان وجرة ماء، مفتوحة العينين أيضًا.

تضاد بين الضعف النائم والقوة اليقظة المطلقة؟ الأنثى والقمر والصحراء والعزلة الموحشة والرمل والموسيقى والموت؟ هل كنت أحلم كالغجرية ببلزاك النائم أم أنّني نفسي حلمه لكن في شاحنة؟ أم نحن جميعا حلم أسد أو كائن مجهول؟

استيقظت في الغبش الأزرق الذي يكسو المرتفعات بلون شفاف، والنار التي أوقدها حسين مردان أو كوران أو اي اسم اخر مشتعلة بالأشواك والحطب، ورائحة القهوة تخلق سلامًا مؤقّتاً مموَّهًا عن عالم متماسك. الشاحنة تستقرّ تحت الأشجار قرب النهر على حافة القرى. دائما على الحافة. حسين يشرب القهوة ويدخن بتلذّذ.

قلت: "هل نمت جيدا؟".

"نمت ولا أدري كيف نمت. هل نوقظهم؟".

قلت: "ليس الآن. كم بقي للكوت؟".

أجاب حسين وهو يحرك جمرات النار: "نحن على مقربة منها. هل سمعت صوت الدراج؟"

"لا، كيف عرفت أنّه دراج؟".

أجاب ضاحكًا" لا يحتاج الأمر إلى علم. يحتاج إلى أقدام. قضيت عمري متجولاً في الجبال والسهول والوديان من أعالي الجبال إلى وديان الفرات ودجلة. جناح الدراج حمري والأنثى لونها أفتح من الذكر. ذهبت لقضاء الحاجة ففرَّ أرنب من العشب".

"أفضل من أنْ تعثر بأسد".

ردَّ حالاً: "تدري؟ والدي قال لي إن الأسود كانت تعيش في الفرات الأوسط قبل عشرات السنين".

تذكّرت ما كتبته الرحالة الإنكليزية الليدي آن بلنت ـــ حفيدة الشاعر بايرون ـــ في رحلتها إلى العراق سنة ١٨٧٨ مع زوجها ولفرد سكاون بلنت في كتابها "قبائل الفرات" تقول: "ركبنا اليوم في طريق ضيّقة تحت الجرف محفوفة بالمخاطر بين صخور رخامية وغابة كثيفة من الطرفاء نمت فيها وتشابكت أجمات هائلة من النباتات الشوكية وصريمة الجدي التي تمتد أميالاً في عمق الغابة، وفي مثل هذا المكان والأشجار تعيش الحيوانات البرية المفترسة، فمنذ سنوات قتل في هذا المكان بدوي اسمه فوزان افترسه أسد ضار. أسود الفرات هي من الأسود البابلية غير الخطيرة لكن إذا وجد منها من تذوق لحم البشر فسيعتاد على هذه العادة ويهاجم البشر باستمرار كما تفعل النمور الهندية في الشرق، ومثل هذه الأسود أحدثت الرعب في قلوب العرب. قصة الرجل الذي أكله الأسد غريبة عن أذهانهم. كان فوزان عائدا إلى منزله في كوكبة من الفرسان، فلاحظ وزملاؤه أسدًا يتبعهم في الطريق، وكان فوزان الرجل الوحيد الذي يملك سلاحا بينما البقية كانوا يتسلحون بالرماح، وبدافع من التحدي والتظاهر بالشجاعة كرَّ على الأسد وأطلق عليه النار من مسدس كان يحمله، فزمجر الأسد واختفى، تابعت المجموعة طريقها دون أن تسرع أو تكترث لعواقب ما حدث، ولكن بعد نصف ساعة من الحادث حلَّ الظلام وسار الجميع في ممر ضيق في رتل أحادي، وفجأة سمع الرجال صرخة والتفتوا إلى الوراء ليجدوا فوزان قد اختفى فأصابهم الهلع، وتصرفوا بجبن عندما فرُّوا بجيادهم مبتعدين عن الخطر تاركين فوزان

يواجه مصيره المحتوم. عادوا في اليوم الثاني ليروا ما حدث فوجدوا بقايا جثة زميلهم على بعد خمسين ياردة من الغابة".

الليدي بلنت هي حلقة في سلسلة طويلة من الرحالة الأوروبيين عبروا الصحارى والبراري الموحشة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر لأهداف علنية (كالسياحة والهرب من الصخب وتعلم اللغة العربية وشراء الخيول، لكن بعدهم جاءت جحافل المستعمرين وهي تحمل معها مذكرات هذا الرحالة، وخرائط ذاك الضابط الذي كان يتخفّى بثياب تاجر أو حاج إلى الديار المقدسة... المدن الأوروبية تملك ركامًا هائلاً من كتب الرحلات ومذكرات الجواسيس. كانت تدعمهم مؤسسات متخصصة أمثال: الجمعية الملكية الجغرافية، وشركة الهند الشرقية، والمتحف الوطني، ومصلحة الاستخبارات العسكرية. الكولونيل شيزني مسح وادي الفرات عام ١٨٣٥ بتكليف من وليم الرابع، ونيبور - مستشرق دانماركي - قاد بعثته إلى ديار العرب بتوصية من ملك الدانمارك نفسه، وكارل شوان - ضابط ألماني سمى نفسه رضوان الرويلي - بتكليف من المخابرات الألمانية، ولاسكاريس عسكري فرنسي كلّف من قيادة نابليون في مصر بمسح بلاد الشام، ولورانس بتكليف من المخابرات البريطانية، بركهارد ١٧٨٤ - ١٨١٧ رحالة سويسري زار سوريا وفلسطين ولبنان وتسلل إلى الحجاز متنكّرًا، وليم جون براون ١٧٦٨ - ١٨١٣، رحالة إنكليزي جاب مصر والسودان وسوريا وبعض البلاد الأفريقية وقتل في الطريق

إلى طهران، وليم بالغريف ١٨٢٦ - ١٨٨٨ رحالة إنكليزي صاحب كتاب "رحلة إلى بلاد العرب"، قناصل وأعضاء بعثات دبلوماسية مثل ريتشارد بورتون ١٨٢١ - ١٨٩٠، وزوجته بورتون، وصل حتى أفغانستان متنكّرًا بثياب حاج مسلم من أفغانستان وحين أسرّ إليه هندي بداعي التعاطف الديني عن قرب انتفاضة ضدّ الإنكليز، أسرع وأرسل برقية إلى القيادة البريطانية هناك)[٢].

هؤلاء قدموا من غرب العراق على طريق الفرات وفي أزمنة قادمة ستنزل الجيوش من الجنوب لا من أجل السياحة والاكتشاف والسباحة والشمس والهرب من العزلة والثلج بل من أجل "وادي الفرات كطريق بري مستقبلي للهند". زوج بلنت ولفرد سكاون قبل أن يسجن بسبب مواقف تضامنية مع العرب وبعد كتابه: (أسرار الاحتلال البريطاني لمصر) هو الذي كتب يقول مقدّمًا كتاب زوجته "إنّ وادي الفرات معروف لدى كل الناس كطريق بري مستقبلي للهند، وندرك على أعلى المستويات أن امتلاكه من قبل دولة صديقة هو أمر حيوي للمصالح البريطانية".

لكن ولفرد سكاون هو القائل: "عندما نرى العرب وهم بين قطعان خيولهم وإبلهم، ونرى حياتهم الريفية النبيلة الغنية بالتقاليد الرفيعة والمفعمة بذكريات البطولة، ثم نرى إلى جانب ذلك قذارة

---

[٢] من مقدمة كتاب "قبائل الفرات".

المستعمرين الشائنة وحاناتهم وخنازيرهم، فإنّه من المستحيل أن يخفى عن أنظارنا التباين الهائل بين هؤلاء وأولئك، أو أن نبعد عنا غضبًا يتملّكنا حيال هذه المفارقة العجيبة التي جعلت من الفرنسيين أسيادًا والعرب خدمًا لهم".

سمعت سعال بلزاك العجوز وصوته وهو يحدق في الشمس المشرقة من الأفق الشرقي بلون فاحم مُشعٍّ كوجه من وجوه يحيى الواسطي رسم بالحبر الأسود الممزوج بالخردل. كما لو كانت الشمس تشرق عليه لأول مرة وبدا ذلك واضحًا من ملامحه المستريحة، ملامح صقر يستحم في طيران تحت الشمس، وسألني وهو يسعل: "ماذا تفعل؟".

قلت: "كنت أفكر في طريق الفرات والهند وكابل وبريطانيا وأجدادنا المطرودين وعجلاتهم متوحلة تحت المطر وفي الوحول والغابات في حين يسرح المستعمرون بحرية. هل يعجبك لقب هتلر الذي أباد مئات الألوف من أحفادك في أوشفيتز؟".

لم يعلق. كان على ما يبدو يعاني من دوار أحلام الطريق ومن سطوع الشمس البهي الذي يصيبه بالخدر والحيوية في آن واحد وهو أمر غير مفهوم بالنسبة لي، فكيف يمكن تصوّر أنْ يُصاب الإنسان بشعورين متناقضين في لحظة واحدة ويستمتع بهما؟

قلت ضاحكا: "هل رأيت أسدا في الطريق يوما؟".

أجاب وقد جلس حول موقد حسين مردان يشرب القهوة بتلذّذ وطيف شمسي جعل الفنجان في لون آخر: "أبدًا لكني سمعت عنه الكثير من الحكايات. أين البنات؟".

فكرت: الغجري لا يجد حرجًا من النوم والشمس مشرقة مع أنّ الأمر غريب عند الآخر. كلمة "الآخر" مرادفة للعدو. مهما كانت نظرة الآخر للغجري في الظاهر تتسم بالليونة في الحفلات إلا أنّ الغجري لا يخطئ أبدًا في كون هذه النظرة تخفي احتقارا عميقا كما يختفي ثعبان نائم في العشب لأنه منذ طفولته كان يرى نفسه في عين "الآخر" كمخلوق عديم القيمة. هذا الآخر يحتاج هذه النظرة من أجل تضخيم صورة الذات والهوية مع أنّه يتحرك في مجتمع للدمى المفرغة من الخيال والذاكرة والمحشوة بالتبن.

في كتابه عن نيتشه يقول جيل دولوز: (يبدأ كتاب زراديشت الأول بسرد تحولات ثلاثة: كيف يصير الروح جملاً، وكيف يصير الجمل أسدًا، وأخيرا كيف يصير الأسد طفلاً ــ الجمل، يواصل دولوز، هو الحيوان الذي يحمل عبء القيم السائدة، أثقال التربية، والأخلاق والثقافة. يحملها في الصحراء ويتحول هناك إلى أسد: يحطم الأسد التماثيل، يتولى نقد كل القيم السائدة. أخيرًا يمتلك الأسد أن يصبح طفلاً، أي لعبًا وبداية جديدة. يرى دولوز: إنّ هذه هي مراحل نتاج نيتشة وحياته وصحته أيضًا، ويضيف: الانقطاعات

نسبية تمامًا: الأسد حاضر في الجمل، الطفل موجود في الأسد، وفي الطفل النهاية المأساوية).

لكن حين يُلغى الأسد ويُلغى الطفل لا يعود إلا الجمل أو الإنسان البغل كحامل لأثقال الجميع. وكل عوالمه الداخلية سيتم استبدالها عبر لعبة تمويه وخداع وترويض. أين هو الأسد والطفل فيّ وفي بلزاك العجوز وفالح ومزاهر ونوال ومديحة والطفلين وحسين مردان وفي غيرنا؟ لكن يمكن العثور على حدبة الجمل عند الجميع، لأنّ الحدبة من السطوع المشع والقوة فإنّها تصبح غير مرئية إلا في مواجهة إنسان آخر، أو في منفى. لا شيء أو أحد يكشف الحدبة غير المكان النظيف ولكن أين هذا المكان؟ الخشية أن يضاعف هذا المكان من قسوة الحدبة على الرغم من زوال أسباب وجودها كما تضاعف النظافة من نتانة القذارة.

نزلت مديحة صالح من الشاحنة مثل وعل على ضفاف نهر في صباح صيفي مشمس وطليق، وخلفها نوال جياد وهي تحمل منديلاً مطرّزًا كما تحمل أميرة غجرية سلّة ورود ملونة في لوحة انطباعية، وجاء الآن دور فرح أو بياتريس حلم حسين مردان المجهض وهي تضحك من هذا الحفل المرتجل والسلام العابر المصنوع من موقد حطب وشمس ورائحة قهوة. قلت مع نفسي إنّ كلّ ما أخشاه الآن هو أن يتداعي فالح حوم تحت هذا الجو المسالم المغري بالأمل وينام على ربابته وينوح بكل ما في أعماق الذئاب من قوة ووجع ونداء.

نوح فالح حوم كنوح الحمام على هدم المآذن، كفزع العصافير من خراب الأعشاش. كان ينحني على الربابة كمن يتوجع من ألم داخلي.

كان وجه مديحة صالح رمليًا كأرضية لوحة الغجرية النائمة لهنري روسو لكنه لم يكن فاحمًا، وتصورت أنّها قادمة من حلم الأسد والقمر الأبيض والصحراء. هبط فالح حوم من الشاحنة وخلفه مزاهر وانطلق الطفلان رغدان وصقر كوعلين صغيرين يركضان هنا وهناك في طقس طفولي بهيج كما لو أنّ هذا العراء المرتجل لا يعني أكثر من مكان لعيد متنقل. فرخ البط عوّام. كان كلُّ شيء مرتجلاً: النوم والحلم واليقظة والإفطار واللعب والضحك والنار ورماد الموقد المتلاشية قبل أن يطلب حسين مردان الصعود إلى الشاحنة. كان النزول والصعود من الشاحنة برسومها ومناظرها المتنافرة ورموزها وشاراتها وألوانها يبدو عاديًا كيقظة صباحية هادئة وفتح أبواب منزل مستقر لكن هذا ليس إلا السطح كمشهد غجرية هنري روسو النائمة جوار أسد تحلم أو تتخيل في عمق عزلتها الرملية وكنت أردّد مع نفسي مقاطع من ديوان "أغان غجرية" للوركا: (يمّحي وهْمُ الفجر ــ والقبل ــ أمّا البيداء فوحدها ــ الباقية).

كنّا جاهزين للسفر والأحلام المرتجلة والكآبة والضحك وحكايات العجوز بلزاك على مشارف مدن وشمس وجداول وطرق وقرى مجروحة بالصمت. نقترب من الكوت مدينة الحجاج بن

يوسف الثقفي. هذا هو الطريق الذي سلكته القوات البريطانية عام ١٩١٥ لحصار القوات العثمانية في المدينة الذي استمر ١٤٧ يومًا وانتهى بكارثة للقوات البريطانية وهزيمة كبرى .بمقتل وجرح أكثر من ثلاثين ألفًا من الهنود والبريطانيين وأسر سبعة آلاف واضطر الناس تحت وطأة الحصار والبرد والجوع إلى سرقة الصلبان من المقابر كحطب للمواقد وأكل الناس والجنود الحشائش ولحوم الخيل ونهب الباخرة جلنار البريطانية المرسلة إلى الجنود المحاصرين ودخّن الجنود أوراق شجر الليمون وأطلقوا عليها من باب التندّر سجائر فرجينيا.

قلت للعجوز بلزاك "سجنت هنا أوّل مرة"، لم يعلق كما لو نقلت له خبرًا عن الطريق. كان حسين مردان قد شطب في آخر استراحة على التراب المدن التي عبرناها بعود طويل: البصرة، القرنة، الدير، العزير (اليعازر ـــ كم هي غريبة هذه الأرض فكل خطوة نبي أو شهيد أو شاعر أو قبر عاشق؟) العمارة، كميت، علي الشرقي، علي الغربي، شيخ سعد، الكوت.

غني مديحة صالح من فضلك من أجل حلم ولفرد سكاون القديم زوج الليدي آن بلنت في طريق الفرات الحيوي "لمصالح بريطانيا كطريق إلى الهند". ولكن لماذا الطريق إلى الهند لا يمر إلا عبر جثث الجنود الهنود الفقراء المجلوبين مع القوات البريطانية؟ إنّه التقليد المستمر في التاريخ: جلب الموسيقيين الفقراء من الهند للمتعة في

القصور الملكية وجلب الجنود الهنود الفقراء للحرب من أجل مصالح يجهلونها كي يموتوا هنا وهم يدخنون سجائر فرجينيا عراقية من ورق الليمون ويمضغون لحوم الخيل والحشيش العراقي الأخضر السام "البيداء وحدها الباقية"، وكذلك المقابر والذاكرة والصلبان وهذه الشاحنة وذاك النهر.

"قل لهم كاولية، كاولية، أبو التتن والكرزات".

على يسار الطريق تعلن لوحة مرور عن مدينة "النعمانية". التاريخ يزغ من خلف غابات النخيل والذاكرة: من هنا مرّ اللخميّون، المناذرة، قبر المتنبي، غزلان البراري. يختلط التاريخ بالأسطورة بالفن. ما الذي يميّزنا عن شخصية الأحدب نوتردام؟ دمامة الأحدب سطحية لكن قبحنا الرسمي جوهري: السلطة لا يهمها كيف تبدو أشكالنا بل كيف تبدو أفكارنا. العاهة ليست في حدبة الظهر بل في حدبة التفكير. عوقب الأحدب بالنبذ على عاهة خارجية وتُرك يعيش في كنيسة وعوقبنا بالنبذ على عاهة التفكير الداخلية و لم نترك للعيش ولو في زريبة.

يتساءل شوبنهاور: "كيف كانت بريطانيا ستعيش وفقًا لمُثلها العليا لو أننا حاكمناها على تشجيعها لعبودية السود، عبودية كان هدفها النهائي السُكّر والقهوة؟". إذا كان ستيورات هال يقول: "أنا السُكّر في أسفل فنجان الشاي الإنكليزي. أنا السن الحلو، مزارع السكر التي عفّنت أجيالاً من الأطفال الإنجليزيين" فهل يحق لبلزاك

العجوز ومن هو على صورته أن يقول: "أنا الطبل والزنجاري والربابة والسويحلي في أفراح الآخرين. أنا الرقص المرتعش والغواية المُستأجرة في الشارع المحقّر".

العجوز بلزاك كفّ عن الحكي والتأمل والضحك والكلام وانزوى ملتفًا على جسده كأفعى أمام النار ومن غير المحتمل أنْ يكون نائمًا أو يقظًا أو ميتًا. إنّه فقط موجود مثلنا فهذا النوع من الوجود - غير المكلف لأحد - هو أسوأ أنواع المنافي والاحتقار والغياب. الغياب الذي يخفي العاهة كما يخفي هذا الشريط الطويل من الأشجار تاريخًا عريقًا كتب على الأرض. هناك خلف الأشجار، قرب النهر، قتل المتنبي بسبب قصيدة. من يتذكر اليوم فاتك الأسدي القاتل أكثر من قصائد الشاعر التي كتبت "على قلق كأن الريح تحتي؟" قال عن هذا الموت الشاعر عبد الوهاب البياتي: (لتحترق نوافذ المدينة - ولتذبل الحروف والأوراق - ولتأكل الضباع هذي الجيف اللعينة - وليحتضر نسرك فوق جبل الرماد - وأنت منفي بلا مدينة - يا صوت جيل مزقت راياته الهزيمة).

هل كان أول وآخر الشعراء الذين قتلوا بسبب شعرهم؟ بعض هؤلاء: طرفة بن العبد، عبد بني الحسحاس، قيس بن الخطيم، سالم بن مسافع القيسي "ابن دارة"، وضاح اليمن، ابن الدمينة، الوليد بن زيد، ابن الحارث البرجمي، أعشى همدان، بشار بن برد، ابن الرومي الخ، الخ. أليس غريبًا أنّ الذاكرة تنصف في كثير من الأحيان أكثر من

رواة التاريخ والقانون؟ التفاصيل وفيرة أكثر من شريط الأشجار على ضفاف نهر دجلة الموازي للطريق لكن المشكلة هي في رسوخ نسق التصفية والدمج والنبذ والمحو.

تقول أسطورة الخلق البابلية: "إنَّ عيني المعبودة تيامات قد تفجرتا، فخرج نهر دجلة من إحداهما، وخرج الفرات من الأخرى". لكن الإله مردخ قتل تيامات وسلخها فصار جسدها هو الأرض. نحن إذن نمشي على جسد إلهة الأسطورة. نسق الصراع والثأر والسلطة البابلي لم يتغير إلا في الشكل من صراع آلهة إلى صراع بشر: بين المدجج والأعزل، بين الشاحنة والثكنة، بين من يملك ومن لا يملك، بين العربة والمترل، بين الحقل والغريب، بين الحق والسوط الخ.

ما يجعل عائلة العجوز بلزاك تعيش في شاحنة متنقلة ومن قبل في عربات جوالة مزينة برسوم هو سبب موت المتنبي، وهو السبب نفسه لكي يكون هذا الطريق الأسطوري المشبع بعبق التاريخ موحشا والبيوت على جانبيه تبدو في صورة ثكنات مترلية مرتجلة، هو السبب أيضًا في تماسك نزلاء الشاحنة وفي تماوي الروابط خارجها أو في تفسخها التدريجي كجثة تحت الشمس في عراء ساكن حيث يبدو شكل الجثة ورائحة التفسخ والعفونة على خلفية طبيعة متوثبة متوهجة كشكل طبيعي من أشكال الحياة المشوهة لأنَّ الفضاء

العمومي مغلق كنصوص الموت، كالتوابيت، كالمترل العراقي المصمّم على التخفي خلف الجدران والتواري والتجنّب مع أنَّ الناس يمشون عراة في حفل تنكُّري عام.

جلست نوال جياد إلى جواري يسبقها عطرها المثير كحديقة متنقلة. كانت تبدو كئيبة وهو أمر لم أعده فيها أبدا. همست قائلة إن زوجها مزاهر حوم يفكر في ترك الشاحنة. قلت حالاً: "إلى أين؟".

"قلت له ذلك ولكنه لم يجب. محتمل أن يلتحق باقارب لنا هنا في النعمانية".

"والأطفال؟".

أجابت: "هذا كلُّ ما أفكر به. هو يعتقد أنَّ هذا تضحية". كانوا يعيشون في "الغرفة" الأولى القريبة من قمرة القيادة، يليهم فالح حوم ومديحة صالح وفرح في الغرفة الثانية، والعجوز بلزاك وأنا في الغرفة الثالثة قرب باب الشاحنة.

الحواجز الخشبية الرقيقة وهمية لا تستر سوى الأجساد. وهم أستار. من كان يرتحل في شاحنة معروفة ومزينة برسوم وعلامات وكلمات وصور ومناظر لا يحتاج إلى جدران. أمّا العالم خارج الشاحنة فيبدو مستقرًّا على أرض صلبة. هذا أحد الأوهام الكبرى. يخيل إليَّ أنّ الجميع في شاحنة طريق تنحدر من فوق منحدر زلق ولا أحد يعرف لحظة الارتطام. الفارق ليس في الشاحنة بل في الوقت. متى يحدث الارتطام لكي يخرج الجميع إلى البريَّة، إلى التيه؟ هذه

الأرض المكونة من جسد إلهة لا تستقر إلا في بحيرة دم ما دام هذا الوادي حيويًا لمصالح الآخرين حتى لو اضطرهم الأمر لتدخين أوراق الليمون وتحويلها إلى سجائر فرجينيا وأكل لحوم الخيل وسرقة صلبان المقابر كحطب للمواقد والموت العاري في مدن غريبة محرومة من النوم والطعام والضحك.

قالت نوال بالهمس نفسه: "حشرت أنت معنا ولا أفهم القضيّة؟".

قلت ضاحكًا" هل أفهم أنا؟".

هذا التخلي عن الحياة المضطربة، هذا الهرب من الصخب والخوف، واللجوء إلى الغجر، والعيش على حافّة المدينة، خارج القوانين، ربما يكون نوعًا من العودة إلى الرّحم البدائي والبريء والعفوي هربًا من القيود. هذه الحياة شبه الأسطورية القائمة على القرابة والدم والسحر واللاعقاب والتضحية الفورية والارتجال المضاد للثبات والتجوال المغامر هي نوع من الحرية في مواجهة قسوة وشروط الواقع. أصبحت غجريًا لا بالولادة بل بالسلوك المحرّر من كلّ سلطة. العبث يحرِّر من كلّ سلطة كما تحرِّر السلطة من كلّ أمل.

لعبة الهرب تقوم على مجموعة تضادات: الشاحنة مقابل المكان الثابت وهو يعني الحجز أو السجن، الاختباء مقابل الوضوح المريب،

العيش المرتجل ضد القوانين المسيطرة، عالم سحري ضد صرامة وضعية منفرة، البراءة في مواجهة المحظور، العرضي نقيض المستقر، الطبيعة في مواجهة الإيديولوجيا، الأمكنة المفتوحة نقيض الأمكنة المغلقة، تتابع المناظر نقيض سكون المؤسّسات، الحماية في صراع مع الانتهاك، المخيلة نقيض الاشمئزاز، الرغبة ضد الإكراه، الخوف في مواجهة البلادة، وكما قال إراسموس في كتابه "الفرار من الطاعون" في القرن الخامس عشر: "إنّ عدم وجود الخوف على الإطلاق في مواقف مثل مواقفي علامة لا على شخص بطل، إنما هو علامة على شخص أبله".

الشارع متاهة عتيقة وغامضة تمضي فيها الشاحنة مثل بقايا مكتبة مندرسة أو حكاية لكالفينو أو بورخيس على الرغم من جمال الطبيعة خاصة في محاذاة النهر ولمعان سطحه في بعض الأمكنة، ودخان المنازل (هذا الدخان يكتسب معنى رمزيا أكبر من وظيفته الحقيقية) وأسراب العصافير المفزعة ودهشة نظرات أطفال الشاحنة أمام عالم ــ خارج الشاحنة، والبياض الكلسي لجدران مدارس القرى وصخب الأطفال في الطرق الخارجية ونباح الكلاب المجفلة، إلا أنّ الرحلة، رحلة الشاحنة، تبدو على مستوى آخر وعلى طريق مختلف، كما أن المسافرين (تعبير مجازي لأنّ السفر يشترط الحرية) يظهرون كمخلوقات مريبة تختلس الرحيل، هذا الرحيل المختلس يعطي الشاحنة صفة مغايرة تمامًا لوظيفتها الأصلية من كونها أداة سفر إلى

أداة نفي، ولا يمكن تحليل المرور الشبحي الخاطف للأشياء والمنازل والحقول إلا من خلال عيون مرتابة ومنفية ومبعدة.

من الخارج تعكس الشاحنة برموزها ورسومها ومناظرها وعباراتها الساخرة والموحية وألوانها وضعًا مختلفًا عن وضع الترلاء داخل الشاحنة وداخل أعماقهم. تخفي الرسوم الخارجية الملونة للطبيعة والطيور والنساء الراقصات الصراع الناشب في الدخل، في عالم الترلاء العاطفي.

مزاهر حوم يصارع العائلة لكي يترل في مكان قريب ويضيع مع فرق متجولة على هذا الشريط النهري من الأشجار والغموض والعلاقات، حزن الأطفال الصامت قد يتفجّر في لحظة قفز الأب من الشاحنة، قلق الخروج الى المجهول، الطريق القادم واحتمالات لحظة غير متوقعة، الطعام، المراحيض الجوالة، الألم، المرض، حفل مرتجل على موقد نار على الطريق وغداء على ربابة وحفيف ثياب زاهية.

إذا صمَّم مزاهر حوم على ترك الشاحنة ستظلُّ الأسرة في حالة انتظار طويل وربما يكون أبديًا. هنا حالات انتظار كثيرة: هناك من ينتظر المسيح، ومن ينتظر المهدي، ومن ينتظر نهاية هذه الحكاية الطويلة، وليس غريبًا أن يكون هنا من ينتظر مزاهر. زاوية الانتظار هي التي تحدد عمق وقداسة وضراوة المشاعر.

في النهاية قرَّر مزاهر حوم مواصلة الطريق وتعالت صيحات احتفالية صادرة من الأطفال، في اللحظة نفسها التي تظهر فيها على الطريق علامة ثكنة بعيدة ومنازل متشابهة رمادية بمعمار هندسي موحَّد خارج سياق المنازل العادية ومن المحتمل أنّنا نمرُّ بمحاذاة بيوت نخبة. هذا الطراز من المنازل يتواصل من الجنوب إلى الشمال ومن الشرق إلى الغرب كمدن سرِّيَّة داخل وخارج المدن المعروفة في آن واحد. هي تتجاور معها ولكن المعمار مختلف وطراز الحياة مختلف أيضًا: إيقاع بطيء ورخو وحركة أجساد الناس انسيابية مسترخية، هو الاسترخاء الناتج عن طمأنينة القوة والسيطرة وليس عن ثراء داخلي عميق وانفتاح بشري على الحياة. تبدو الشوارع العادية امتدادًا صوريًا لعالم الشاحنة الداخلي وهو عالم مكشوف من الخارج، مبهرج، مُزوَّق، مرح، لكنّه مغلق من الداخل كعيون الموتى.

عدة مرات تغيرت بداية الرواية وتبدل خلال السرد التصميم الذهني الأولي وتلاشت معه الصور. كانت البداية المفترضة هي سقوط القتيلة فوزية جبار أم بياتريس أو فرح فالح حوم برصاصة في الحي الغجري في المسيّب في السابع من كانون الأول عام ١٩٧٢ ومع التداعي الجسدي يهبط تاريخ طويل من القهر.

– تقدمت بعد ذلك بداية أخرى هي جلوس الليدي آن بلنت في شرفة قصر القنصل البريطاني في بغداد عام ١٨٧٩ في مناخ وباء

الطاعون وهي تتحدث مع زوجها ورفيق الرحلة ولفرد سكاون عن ذكريات الطريق عبر الفرات والقبائل والصيد والمطر والسفينة وشكسبير وثلوج حلب شتاء ١٨٧٧ - ١٨٧٨ وقوافل الجنود المنسحبين والفارّين من حرب الامبراطورية العثمانية البلغارية وسيطرة الأتراك على طريق القوافل السوري وشراء البغال والمهرة هاجر وأسود الفرات البابلية وغابات الطرفاء والرعد والخانات والنزول من دير الزور على حافة الفرات مرورًا بالقائم وعنة وحديثة وهيت والرمادي والثلج وذئاب بغداد والبحث عن منزل القنصل في مقهى بغدادي وعن خان لربط الخيول المنهكة ثم غرفة الكولونيل أو القنصل البريطاني والمائدة الحديثة المترفة بعد رحلة شاقّة والروس على أبواب القسطنطينية وشرفة الكولونيل المطلّة على دجلة وأشجار البرتقال وحصار بغداد الطويل ومرور الجنازات وأسراب الحذاف وحديث الدكتور كلوفيل عن أزمنة الكوليرا في بغداد سنوات ١٧٧٤، ١٨٠٤، ١٨٣١، ١٨٦٧ وعن مدحت باشا وتدميره أسوار بغداد التاريخية بحجة التحديث وحين غادر بغداد ترك ساعته رهينة والباشا الجديد عاكف باشا الفاسد واستعراضه الخيول أمام الليدي وحديثها عن رحلة لامارتين إلى الشرق العربي، وزيارة الكاظمية منفى السياسيين الهنود، ثم الرحيل من بغداد في جوّ مشرق صاحٍ، ومصادفة الغزلان والثعالب البيضاء وطيور الحباري والجاموس والمطر أيضًا والشرقاط العاصمة الآشورية ثم سوريا.

- كانت هناك أيضًا بداية مقترحة تظهر فيها الروائية أجاثا كريستي في عام ١٩٢٨ قادمة بالقطار من محطة قطارات فيكتوريا اللندنية إلى الساحل الجنوبي لإنكلترة ثم عبور البحر إلى كاليه الفرنسية وبعد ذلك السفر في القطار إلى استنبول ثم قطار حلب وبغداد، أي قطار الشرق، ستكتب روايتها الشهيرة "جريمة في قطار الشرق السريع"، وتظهر جالسة في مقهى بغدادي في شارع الرشيد نازلة من فندق مود (الجنرال البريطاني الذي احتل بغداد في الحادي عشر من آذار عام ١٩١٧ المدفون في المقبرة الإنكليزية في باب المعظم) لصاحبه ميخائيل زيّا مع زوجها عالم الآثار ماكس مالوان وهي تفكر في التصور الذهني لروايتها الشهيرة "جريمة في بغداد" والمشهد الأخير يُظهر السيدة كريستي في اليوم الأخير من حياتها تتأمل عبر النافذة أحد الشوارع عام ١٩٧٦ وهي تحلم بالسهول العراقية الجنوبية وذكريات رحلة عبر الصحراء الغربية وأطلال نينوى. هذه البداية ألغيت كي لا تقود السرد نحو عالم بوليسي غامض مغلق.

- هناك بداية مثيرة هي وصف المؤرخ والقائد كزينوفون "٤٣٠ - ٣٥٥ ق. م" وتلميذ سقراط في كتابه أناباسيس "الصعود" لهزيمة الهيلينيين أمام الأخمينيين في بابل والانسحاب بما تبقى من جيش إلى البحر الأسود.

– أو وصف المؤرخ هيرودتس مرافق حملة الإسكندر المقدوني "٤٦٠ ق.م" لبابل قائلا: "لا توجد مدينة بمثل روعتها" وقال: "إنّ الساعة الشمسية وتقسيم اليوم إلى أربع وعشرين ساعة وعلم المساحة هو بابلي".

– من البدايات الملغية حفل تشييع جنازة جيترود أو مس بيل في الباب الشرقي إلى مقبرة الكنيسة الأرمنية وقد لعبت دورًا في صناعة ملك ودولة في عشرينيّات القرن العشرين ثم موتها الغامض في السرير في الثاني عشر من تموز ١٩٢٦ الذي كان بسبب جرعة زائدة من حبوب منومة أو مهدئة سهوًا أو عمدًا خاصة وأنّ مس بيل صانعة الملوك عانت في أواخر حياتها من كآبة عميقة وعزلة موحشة. أو مس بيل وهي تكتب رسالة لوالدها عام ١٩٢١ تقول: (أمضيت نهارًا جيدًا في المكتب وأنا أضع حدود الصحراء الغربية من العراق) كما لو أن الخاتون ترسم خطوط حقول الأسرة، ولا مكان لنا فيها سوى رعايا أو أجراء أو نزلاء. قبل وصول الملك فيصل إلى العراق كانت مس بيل أو جيترود مشغولة بتصميم علم عراقي مؤقت — وبعد مرور عشرات السنوات، في مستهل قرن آخر، سينشغل آخرون بتصميم آخر للعلم، وتحت احتلال آخر.

المشهد الافتتاحي المقترح يبدأ على هذا النحو: في الحادي عشر من تموز عام ١٩٢٦ تأتي مس بيل من رحلة السباحة الاعتيادية في المساء وتشعر بالإعياء فتذهب إلى النوم وتطلب من خادمتها أنْ

توقظها في الساعة السادسة صباحًا وإلى جانبها علبة الأدوية وكانت قد أرسلت في اليوم السابق ملاحظة إلى كين كورنواليس تطلب فيها الاعتناء بكلبها (إذا حدث لها مكروه). ويقول الدكتور دنلوب الذي حرر شهادة الوفاة إنّها توفيت بسبب تناول حبوب مهدئة قبل يومين فقط من عيد ميلادها الثامن والخمسين ـــ كما تذكر جورجينا هاويل في كتابها "مس بيل ابنة الصحراء وعاشقة الشرق".

– كانت هناك بداية غرائبية هي تشييع جنازة عباس السبع عام ١٩٠٩ أحد شقاوات بغداد وقاطع طريق ومسلب تجار بعد قتله من قبل الجندرمة وسحل جثته في الشوارع بحصان وغضب الناس ونواح النساء وهن يهتفن بشجاعته "عباس السبع يا مطيّح التجار" حتى ساحة السراي وتركه تحت الشمس. خرجت بغداد عن بكرة أبيها في وداع السبع تحت حراب مشددة من قبل الجندرمة ـــ في اللغة الفرنسية تعني كلمة جندرمة الرجل المسلّح.

– تغير الأمر إلى البداية من مكان آخر هو المكان نفسه الذي نزل منه الرحالة ألويس موسيل أو موسى بن نمسا كما سمى نفسه من غرب العراق، وهو تشيكي المولد – ١٨٦٨ – ونمساوي الجنسية وشقيق الروائي الشهير روبرت موسيل، زار عام ١٩١٢ بيروت ودمشق وتدمر وبابل وبغداد، وبدعم من القيصر النمساوي عاد موسيل مرة أخرى إلى الجزيرة العربية لدعم الثورة ضد الإنكليز، وفي

عام ١٩١٤ وصل العراق وزار النجف عبر طريق الفرات الأوسط قادمًا من سوريا، ثم زار عام ١٩١٥ الخورنق وكربلاء وبغداد، وظلّ يطوف في الشرق الأوسط حتى نهاية أحلامه بتفكّك الإمبراطورية النمساوية عام ١٩١٨، في أتون الحرب العالمية الأولى والصراع على مناطق النفوذ.

في كتابه "الفرات الأوسط" يقدم موسيل أعضاء بعثته: (قمت من دير الزور في آذار ونيسان عام ١٩١٢ بصحبة البرنس سكتس آل بوروبون الذي سميناه الأمير برحلة بالميرينا مع رودلف توما سبركر، موظف في المعهد الجغرافي العسكري النمساوي كمساعد، وناصر بن عبيد المغلوق ومحمد بن سعد الدين للعناية بالنوق التسع والمتاع والطبخ والغسيل).

في رحلة أسطورية من دير الزور مرورًا بمدن الفرات الأوسط الفحيمي، الرمادي، النجف، كربلاء، تكريت، بغداد والثرثار والخابور بمحاذاة الفرات إلى دير الزور، الطريفاوي والمعدان، ومن المعدان إلى خرائب سوريا في بالس، يُقدِّم موسيل وصفًا فريدًا لتلك الأمكنة والأجواء مفعمًا بالصفاء السردي الذي يلتقط أدق وأبسط الأشياء والصور والأمكنة والقبائل.

موسيل، مثلا، مكلّف من قيصر ونحن شاحنة غجر، هو يستكشف ويبحث ويتمتّع ونحن نبحث عن مكان هادئ للإقامة،

موسيل أجنبي عومل أفضل من مواطن، ونحن لا نملك لا الوطن ولا المواطنة، موسيل يحمل معه خرائط ونحن نحمل أحلاماً بسيطة في العيش السهل، هو جوال متع ومعرفة ومواطن مصرّح له بالسفر والحماية والتجوال والنوم والسكن في كل مكان، ونحن شاحنة متنقلة نعيش على هامش المدن.

موسيل ومس بيل ولورانس وغيرهم الكثير قدموا قبل الجيوش - التي ستنزل من الجنوب يومًا - ونحن قدمنا من العدم لأنَّ هذا الوطن لا يتسع للجميع، وسنصعد نحو الشمال. موسيل ومس بيل ولورانس وغيرهم الكثير لا يسردون حكاية النفي بل يخطّطون له لأنَّ وادي الفرات "هو طريق بري مستقبلي إلى الهند"، أما نحن فنعيش النفي دون أن يكون طريق الفرات البري ولا غيره صالحًا لنا كرعايا مشبوهين. في أزمنة لاحقة سيأتي الجنرال شوارسكوف، والجنرال تومي فرانك الخ... من الجنوب ليس بشاحنة غجر ومواطن هارب ومنفي ومتنكر، بل بكل أسلحة العالم ويصبح الجميع غجرًا يحلمون بالرحيل وما من شاحنة. كل هذه البدايات المقترحة والمفترضة أزيحت لكي تفسح الطريق إلى بداية غير مفكر فيها وغير متوقعة وبالصورة التي ظهرت فيها.

سيل من الشتائم يتدفّق من أعماق فالح حوم وهو يقبل ماشيًا من الغرفة العائلية الأولى كما لو أنّه يمشي في شارع وكانت الشتائم

موزعة على العالم وعلى نفسه وعلى الصيف الحار والطريق والمدن وهي سلاح الأعزل في وجه مطارديه.

"كوران أبو التتن والشاي، قنّاص جبال كورك ونواخين وهندرين، قل لهم كاولية ومعدان وبيشمركة وسمل شيوعي أو طفل اللامكان، وعلى عناد كلود ليفي شتراوس والتطهير الطبقي" قلت، ضاحكًا.

الفصل الثالث

طريق العزل

"هل نصمت أم نواصل الحكي؟". سألتُ العجوز بلزاك الصامت.

وتابعت: "من غير المعقول أن يمرَّ ملك مخلوع مثلك من هذا الطريق الملكي بلا كلام، ومن غير الممكن أن نحرم من حق الحياة ومن حق روايتها".

الآن، في زمن الحكاية وليس في زمن الحكي، نحن في الطريق إلى بغداد، وهنا سمعت العجوز بلزاك يقول: "كيف صارت الحكاية؟". بلزاك يعرف اننا نمر بمحاذاة الصويرة المدينة التي ولدت فيها ولكنني أمر كمار عابر، وأما "الحكاية" التي يسأل عنها بلزاك فهي وجه اخر من وجوه الموت العلني والجريمة المشرع لها حسب قانون الرغبة.

قلت: "الجميع ينتظر أن تلد المرأة قبل قتلها".

هي واحدة من حكايات فوق الواقع - الواقع الحقيقي والمتخيل بالقوة، عالم غريب ولكنه عالم حقيقي، ولشدة غرابته يبدو متخيلاً: ضابط شرطة في إحدى المدن يستدعي الزوج في أحد صباحات تموز الماضي إله الخصوبة البابلي "نحن الآن في آب" ويبلغه قرار "سلطة عليا" بقتل زوجته بنفسه بحجة الخيانة والزوج مصدوم من الخبر والصفاقة والأمر. الخيانة في عرف سلطة الواقع المتخيل لا تشمل السياسة ولكنها تدخل في التفاصيل الإنسانية المجهرية، في الجسد والشهوة والغواية والجنس والشبق والرغبة والصداقة والزواج والموت والدفن. الزوج يحتجُّ بأن الزوجة حامل في شهرها الأول. الضابط اتصل بـــ(سلطة عليا) وبعد دقائق يأتي الرد (تُقتل بعد الولادة مباشرة في اليوم نفسه، علنًا). يحلق الزوج بوجه الضابط صارخًا بصوت وحشي (علنًا؟) ردَّ الآخر بهدوء أفعى تزحف في العشب (علنًا وبسكين أيضًا). موت مركَّب للزوج. أضاف الضابط كما لو يلقي أمرًا لأحد شرطته: (شرط ألا تعلم هي بالأمر أبدًا.

كانت الوحيدة التي لا تعلم بمصيرها كما في مقتل سانتياغو نصار في رواية (قصة موت معلن) لغابريل غارسيا ماركيز حيث الجميع يعلم بموعد وساعة ومكان القتل إلاّ سانتياغو نفسه، والأمر نفسه في مسرحية (زيارة السيدة العجوز) للكاتب السويسري فردريتش دورينمات التي تتحدث عن سيدة عجوز تعود إلى قريتها بعد أن رفض أحد الرجال الزواج منها وهذه العودة مصمَّمَة للانتقام

من الرجل لكن عبر تحريض سرّيٍّ لسكان القرية ضدّ الرجل من أجل النبذ والاحتقار دون أن يعرف الأسباب لأنَّ العجوز تغدق عليهم بالأموال وحين علم أنَّ هذا الأمر مدبَّر حاول الهرب، لكن القرية تحاصره وتجبره على لزوم بيته حتى تقرر السيدة العجوز متى يقتل.

حكاية تتكرر في كل مكان وزمان عبر رواة مختلفين. قلت للعجوز بلزاك: "الجميع يعلم الآن وهم ينتظرون ساعة الولادة". كيف يكون العقل البشري الذي يقرر أنَّ ساعة ولادة الأم هي ساعة قتل أشياء كثيرة لأنَّ هذا التواطؤ الصامت هو الأكثر رعبًا. سأل بلزاك العجوز وقد تجاوزنا حدود المدينة، الراقدة عبر النهر، بين الغابات "والموعد؟".

قلت: "أوائل نيسان القادم في السنة المقبلة هو الشهر الأخير".

صمتُّ ونظرتُ الى الأشجار والقرى وضوء النهار والطريق والدخان والظهيرة نظرة محيرة لا أثر فيها للجمال الذي كنت أعثر عليه في تفاصيل الحياة اليومية البسيطة: جدول ماء وصيحات بطٍّ وكلب نائم تحت ظلال ظهيرة أو قنطرة داخل دغل كثيف. نيسان هو الشهر السومري ورمز الخصب والولادة والنمو والأعياد: عيد أكيتو السومري حيث العربة الملكية تحمل الملك والكاهن وسط الجموع المحتفلة المبتهجة في نيسان شهر كوكب الزهرة وبداية الربيع والتفتح والولادة. كيف انقلبت الأمور وتبدلت الأحوال؟ كيف

يتحول الإله ديموزي العاشق إلى قرار قتل؟ ونيسان التفتح والربيع والأزهار إلى قرار موت؟

لا شيء تغير مع تغير الاسم إلى زهران كما لو كان حجرة فتحول إلى جدار أو أي شيء آخر عدا مشاعر تحرر من أيّ ارتباط. ارتباط بماذا ؟ هل يمكن لشيء أن يرتبط بأرض أو وطن وهو يعيش على هامشه؟ هذه شروط العيش في أوشفيتز العراقي المبتكر من مخيلة معتقة قادمة من أعماق بعيدة منذ قرون وفي كل مرة يحمّل أحد ما كل هذه الجرائم ويتحول الباقي إلى ملائكة.

الذين عبروا حدود العراق من الغرب أو من الجنوب سواء كانوا رحالة أو جنرالات، عبروه باسم الحق في البحث والمعرفة والاكتشاف أو الحق في الحرية. جميعًا حملوا تفويضًا من جهة ما. أمّا نحن فنسافر كلصوص نختلس الوقت، الطعام، النوم، النظر، الشم، الحسّ، والمسرّة.

من قال إنّ مصيرنا مختلف عن مصير تلك المرأة النائمة على موت يقترب في حفل علني مفتوح وجماعي للزور؟ سانتياغو نصار أفضل حالاً لأنّ الجهة التي حكمت عليه بالموت كانت بدافع الثأر والشرف العائلي على إثر وشاية، والسيدة العجوز كانت المحرّض الوحيد على الرجل في القرية التي تحولت تحت شهوة المال إلى بصّاصين ومطاردين،

أمّا في حكايتنا، فإنّ القاتل مؤسّسة.

في الشاحنة لا أحد يستطيع أن يروي حكاية بلا تبغ أو بأسنان ذهبية ضاحكة حتى وهو يتحدث عن فواجع قديمة أو محتملة. يمكن القول إنّ "سرديات التبغ" المرتجلة هي التاريخ الشفوي لتاريخ النبذ وهي ميزة المشرد والمتمرد في جبال أو أدغال ــ حسين مردان مثلا ــ ولكن بدون إذلال الذات ورفع الآخر كما في حالة المشرد والمتسول. الحديث لا يعكس وجهات نظر في الغالب ولكنه ينقل أخبارًا أو معلومات لأنّ حدود الحياة ضيقة إلى أبعد حدّ أو تمّ تضييقها على هذا النحو. اللغة العربية والتركية والكردية تم خلطها في لغة تسمى (الرّطين) وهي للتداول العائلي والقبلي. لكن من منّا لا يرطن هذه الأيّام؟ الرطانة اليوم ليست لغة ولكنها ذهنية. كلنا يرطن على طريقته الخاصة و لم تعد الرطين لغة الغجر. فهذه اللغة لم تعد أداة تواصل ولكنها أداة نفي.

قال لي بلزاك يومًا: "كنت في يوم من الأيّام جودرًا. هل تفهم معنى جودر؟ معناه هارب مع عشيقته ومطلوب وعليه أن يقدم الحشم لأسرة الفتاة أو يدفع حياته ثمنًا. لم يكن عندي المال المطلوب فقدمت أختي "دية" أي فدية. نحن ثلاثة أجيال تضحية أختي".

سرديات التبغ قد تبدل من مجرى الحكاية أحيانا حسب مذاق التبغ والمزاج، التوعك أو النشوة، السأم أو الانخطاف، وقد تضفي

عليها نوعًا من الإثارة الآنية غير المتوقعة لكنها لا تلغي بنية الحكاية. بياتريس وبلزاك العجوز وفالح حوم وغيرهم حكوا عدة مرات الحكاية نفسها لكن بصيغ مختلفة، وحين كنت أسأل كان الجواب: إنّ التبغ كان رديئًا أو طيبًا، مهيجًا أو مقرفًا، لكن لا أحد قال يومًا إنّ الحكاية نفسها لم تكن صحيحة. وماذا يعني أن تكون الحكاية صحيحة أم لا ما دامت مقنعة ومشوقة وممتعة؟ من قال مثلاً إنّ حكاية الشاحنة صحيحة أو حقيقية تماما؟ من قال إنّ بلزاك العجوز موجود والشاحنة والطريق وموسيل والليدي آن بلنت وشوارسكوف وأجاثا كريستي والأسود البابلية وزهران وأجي الإيطالية وحانة كاردينيا والخ؟

قال فالح حوم: "أفضّل المبيت الليلة في النهروان". كنا على مشارف بغداد والمساء يتقدم ببطء صيفي وعلى يسار الطريق المفاعل النووي، لكن النهروان يستدعي الذاكرة والتاريخ والحرب مثل أيٍّ مكان أو خطوة أو علامة أو رمز أو ضريح على هذه الأرض: معركة الإمام علي ضد الخوارج. في التعريف الريفي الحاكم: نحن خوارج.

أضاف فالح حوم: "ليس في النهروان تماما ولكن على الأطراف". دائما على الأطراف، أي الهامش، أي المساحة المحرمة والمسروقة، أي المكان الملتقط من غفلة الآخر، من "الأجنبي" وكل ما هو خارج الشاحنة هو أجنبي. كلنا أجانب على هذه الأرض. مذياع يزعق

بنشيد وطني. الكاولي لا يعترف بوطن ولا بزعماء ولا أناشيد ولا ثورات ولا أحد يعترف به أيضًا. إنكار متبادل: (لم يسبق للغجر أن اعترفوا بالملوك. القادة المحليون من مشايخ وزعماء مسنين هم أقصى ما تحتاجه أية مجموعة أو ما يمكن أن تتحمل وطأته، وهؤلاء الرجال كانوا بالفعل بمثابة القضاة وليس الحكام). كما ستكتب إيزابيل فونسيكا بعد تلك السنوات في (سيرة الغجر) الكتاب الذي وصفه أدوارد سعيد بأنه (إنجاز فذّ. عمل أصيل وآسر).[٣]

دورية عسكرية قادمة من معسكر (بسماية) ساحة إعدام شهيرة تجري فيها إعدامات جماعية كلوحة العصاة للرسام غويا. على اليسار المفاعل النووي وعلى اليمين ساحة إعدام. ماذا يشتهي غويا أو طارق بن زياد العراقي أكثر من ذلك؟ قلت: "حسين، قل لهم كاولية". قال لهم ذلك، فتعالى ضرب الأصبع من الدورية ورفعوا بيرياتهم في الهواء وكان الشفق اللازوردي يكسو المكان بلون متوهج محتفل يتناقض مع وظيفة هذه الأمكنة الخطرة: نار وموقد وليل وربابة وشاحنة وساحة إعدام ومفاعل وحقول ومصابيح وعراء وغجر وخوارج وسرديات تبغ.

الليدي آن بلنت تتأمّل من شرفة قصر المندوب السامي البريطاني

[٣] كتاب: سيرة الغجر للكاتبة ايزابيل فونسيكا مهم لفهم أدق لعالم الغجر الداخلي المغلق.

شوارع بغداد وقد وصلت قبل بضعة أيّام بعد رحلة شاقة عبر الصحراء بمحاذاة الفرات وكان زوجها ولفرد سكاون يجلس إلى جوارها على كرسي من الخيزران والتاريخ هو شباط ١٨٧٨. كان المطر يسقط فوق منازل بغداد الطينية حيث بدت أشجار النخيل غارقة في الوحول. سألوا عن دار القنصل، فأخذهم جندي إلى خان لربط الخيول لأن عليهم عبور النهر فوق جسر معلق، وبعد ارتداء الملابس الجافة، كانوا أمام مائدة (تناثرت فوقها السكاكين وشوكات الطعام والزهور والفاكهة) وظهر الخدم الهنود بزي أبيض. كانوا في غرفة الكولونيل نيكسون وأخبار الروس على أبواب القسطنطينية والملك عمانوئيل والبابا يلتقيان في روما ومع الأخبار كانت الليدي ترى فخذ خنزير مملح.

هي على الشرفة المطلّة على دجلة ولفرد سكاون يقرأ في كتاب، وكانت الليدي تتأمل بغداد النائمة تحت رذاذ مطري ناعم ورائحة التراب تملأ المكان لكن في خلفية المشهد، المشهد غير المرئي، المبعد، وباء الكوليرا يفتك بالمدينة. تتذكر الليدي مشاهد الرحلة الطويلة من إنكلترا في تشرين الثاني ١٨٧٧: من ميناء مرسيليا إلى ميناء الإسكندرون على خلفية حرب ضروس بين تركيا وبلغاريا: (بدت الإسكندرون بشاطئها الأزرق وسمائها الصافية وكأنها في صيف أبدي إلا أنّ الثلوج كانت تتوج قمة جبال طوروس على بعد مائة ميل وتنذر بشتاء وشيك).

قالت الليدي كأنها تخاطب نفسها: (ما زلت أسمع أجراس البغال في الطريق إلى حلب).

قال ولفرد سكاون كالنائم: (أجنحة طيور القاوند ونحن نعبر مستنقعات الإسكندرون إلى حلب تضرب في أذني).

(في دروب حلب كان منظر الجنود المربوطين بأصفاد خشبية لهروبهم من الجيش العثماني ومن الحرب جارحًا).

لم يعلق ولفرد أول الأمر لكنه قال وهو يركن الكتاب جانبًا ويطل على شوارع بغداد: (كيف يحارب جندي من أجل أمجاد امبراطورية زائفة؟).

قالت الليدي – مررنا ببحيرة قبل الوصول إلى بغداد مليئة بطيور البجع والبط واللقالق، لكن إطلالة مدينة الخلفاء الأولى كانت مخيبة. الوحل وبيوت الطين وأخبار الوباء والكلاب والثعالب. كيف يمكن تخيل بغداد بلا دراويش؟).

قال سكاون: (هذا لأننا نتصور أنّ كل شيء سيكون متطابقا مع حكايات ألف ليلة وليلة. نصدم بأوهامنا. يبدو أنّ الدراويش تركوها بسبب الوباء).

قالت الليدي: (تبدو مدينة شرقية باهتة. الكولونيل نيكسون مضياف ولكنني كنت أُفضّل العيش في فندق ومع الأسف أنّ الخانات خاوية وأشبه بالثكنات).

قال سكاون: (حديث الدكتور كلوفيل عن وباء الكوليرا غير مطمئن. قال إنّ الموجة الأولى للوباء حدثت سنة ١٧٧٤ وحسب سجلات المندوب السامي البريطاني يمكن القول إنّ مليوني شخص قد ماتوا في بغداد والبصرة وهذا الرقم يشمل الأقاليم الأخرى المحيطة ببغداد. وبعد ثلاثين عاما، أي في عام ١٨٠٤ عاد الوباء مرة أخرى، ثم في عام ١٨٣١ وكانت النتيجة مائة ألف ضحية من المسلمين والمسيحيين واليهود والفرس والأتراك، ثم عودة رابعة في عام ١٨٦٧ الخ. ما الذي يعجبك في الوالي محمد عاكف باشا).

(لا شيء عدا فرسه التي من سلالة السمري وكنت أظن أنّها كحيلة جدرانية أول الأمر).

تكتب الليدي بلنت في كتابها "قبائل الفرات": (في الرابع والعشرين من شباط كنا في الكاظمية من بغداد، مقرٌّ المنفيين السياسيين المسلمين من الهنود. هم في هذه الديار يتمتعون بفائدتين: الوفاق الديني مع البغداديين، والحماية التي توفّر لهم كرعايا بريطانيين. كانت الشمس تشرف على المغيب وكانت المدينة كلُّها تتلوَّن بلون أحمر وردي جميل، ومما يزيد الوجود بهجة توهج القبة الذهبية في منظر رائع الجمال يبشر بيوم جميل من أيّام رحلتنا في صباح الغد المرتقب).

قلت لبلزاك العجوز: (هل يعجبك أن تقيم سيدة إنكليزية قدمت عبر الصحراء الغربية قبل مائة عام تقريبًا في قصر القنصل البريطاني في

بغداد وتتمتَّع بكل المزايا من رفاهية وحماية وتقدير مع زوجها في حين نقيم الآن، خلسة، بين مفاعل نووي وساحة إعدام؟). ضحك عاليا مقهقها في حين تحلّق الآخرون حول موقد النار المرتجل في بريّة ساكنة تلمع في أطرافها أضواء معلّقة في فضاء مسائي مهجور.

تحلُّ اللحظة الحرجة من المساء التي تُذكّر بدفء المنزل وحميمية الأشياء الأليفة والمفقودة في آن: الباب، رائحة ثياب قديمة، رسائل أو مذكرات، سرير قديم، جدران، باحة، قط أو كلب، صمت المنزل في الليل، الجيران، عواء ثعالب منتصف الليل، صفارة حارس ليلي قبل أن ينقرض زمن اللصوص الظرفاء، بكاء طفل، نداء عبر الشارع، مشاكسات مارة في الليل، مخلوقات المنزل السرية التي تعيش في الجحور وتشارك النزلاء العيش المشترك، عصافير السقف، سنونوات المنزل، رائحة حطب مشتعل، رائحة نعاس لذيذ آمن قرب موقد، طرق باب غير متوقع، سعال بعيد، أقدام مارّة في سكون الليل تحت المطر، نافذة بعيدة مضاءة في الضباب كقارب في الفجر.

لم يكن لون شمس المغيب محمرًّا، ورديًّا، جميلاً، كلون شمس الليدي آن بلنت، ولم تكن القباب متوهِّجة، ولم يكن المنظر رائع الجمال، بل كانت ساحة الإعدام موحشة، ضاجة بالصمت الآز، وكنا نحلم بصباح أفضل ونحن ننام في الشاحنة بعد أن انطفأت نار الموقد في عراء بارد ومعتم وضيق.

لكن هناك حكاية أخرى لم تُقرأ جيدًا مثل حكايات كثيرة كما حكاية موسيل المرسل من ملك النمسا لكي يسجل كل شبر على هذه الأرض: وصل الويس موسيل بغداد في ١٨ نيسان ١٩١٥ في رحلته الأخيرة في أجواء الحرب العالمية الأولى وعبر الجسر العائم إلى الضفة اليسرى لنهر دجلة لزيارة القنصل (النمساوي/ المجري) الذي يسكن جنوبي المدينة على ضفة النهر. كتب موسيل: (أقفرت طرقات مركز المدينة، التي كانت تصعب الحركة فيها سنة ١٩١٢، وأصبحت الآن خاوية. معظم الحوانيت مغلقة، والمقاهي لم تشغل سوى نصف مقاعدها، والنساء الريفيات اللاتي كنَّ يبعن الطعام في الأوقات العادية لم يعد لهنَّ وجود. وظهرت أحيانا جماعات من الجنود هنا وهناك. أما صفوف الأكواخ التي كانت تكتظ بها بساتين النخيل فقد تهدمت أو جرفتها مياه الفيضان.كانت توابيت وهياكل بشرية متفسخة طافية فوق الماء. ونتج عن انتشار الكوليرا المروِّع في المدينة ــ كان يموت ثلاثمائة شخص كلّ يوم ــ أنْ أصبح موتى المسيحيين يدفنون الآن على سدِّ الطريق العام الجديد، لهذا كان على الماشي أن لا يمرَّ على مقربة منها فحسب، بل عليه أنْ يسير بين القبور وعليها كذلك. وكانت هذه القبور قليلة العمق والجثث مغطاة بطبقة خفيفة من التراب لذلك فإنَّ الروائح الخطرة انتشرت بسرعة في جميع الجهات. لم يعد ثمَّة وجود للحياة في المدينة التي كانت فيما مضى من أكثر المدن نشاطًا في الشرق).

سمعت بلزاك العجوز يهمس ليلاً بعد أن نام الجميع في الشاحنة: "ضع رأسك نحو المفاعل ورجليك إلى ساحة الإعدام كي لا تقترب منك الكوابيس". أوشكت ضحكة عاتية أن تفلت منّي. أضاف: "أول مرة وصلت بغداد كان في بداية القرن مع العائلة وكنت طفلاً. كنا نخيم على مقربة من هذا المكان أيضًا وندفع الضريبة العثمانية المسماة الويركو وهي تدفع من قبل سكان الأكواخ والخيام سنويًّا بمقدار خمسين قرشًا، ولم ندخل المدينة إلاّ لتقديم خدمات في الحفلات أو حين عملت سائس خيل في إسطبل وجيه بغدادي".

لم يحدث هذا الأمر معك فحسب، يا بلزاك الصديق، قلت مع نفسي، والأمر نفسه مع فقراء (خلف السدَّة) لأنَّ المعمار المديني لهذه المدن لا يسمح بحيِّـــز داخل الأسوار في الدخول في مجال التبادل العاطفي للهامشي والفقير والمطرود والمنبوذ والمحروم من المُلكية والصوت والسلطة لكنَّه يسمح بهامش صغير لهم كخدم أو موسيقيين متجوِّلين أو مهرِّجين أو سحرة في نطاق التبادل السلعي الخدمي والترفيهي وظلَّ كلُّ شيء فيهم: الشكل والوجه والزيّ والعقائد واللهجة والسحنة والسكن، محتقرًا وهو ما غذَّى على مدى عقود كراهية دفينة متبادلة لا يسترها الطبل ولا الزنجاري أو الربابة.

مس بيل مثلاً كانت تتسلى في أوقات الفراغ بصناعة ملك ودولة أو بتخطيط حدود الصحراء الغربية وتشعر بنشوة عارمة كنهاية لذَّة جنسية. تقول الصحافية الأمريكية مارغريت هاريسون في عام

١٩٢٣ عندما دخلت مكتب مس بيل في بغداد: (كانت الغرفة الأكثر فوضى التي رأيتها على الإطلاق، فقد وجدت الكراسي والأرائك والطاولات مغطاة بالوثائق والخرائط والمنشورات والأوراق باللغات العربية والإنكليزية والفرنسية).

كانت تصنع دولة ليست لنا. الليدي آن بلنت وموسيل لورانس وغيرهم لم يكتبوا مذكراتهم فحسب بل صنعوا المخيلة الغربية عن هذه البلاد التي ننام الآن على أطرافها كلصوص يسرقون المكان والنوم والحلم.

مرة أخرى همس بلزاك العجوز: "هل ستنام؟".

أجبته: "لا أظن".

"دعنا نَحْكِ".

"عن أي شيء؟".

"اسمع زهران. أوّل مرَّة شاهدت فيها أشخاصًا يُصلبون في بغداد كان في عام ١٩١٥ في محلة رأس القرية بتهمة التجسّس على العثمانيين ومنهم يوسف شكوري وكامل عبد المسيح وعلى صدر كلّ واحد منهما فرمان الجريمة. تلك كانت المرّة الأولى في حياتي التي أرى فيها إنسانًا يُشنق، ولم أنم تلك الليلة، وأعتقد أن أهل بغداد أصيبوا بالهلع أيضًا. في السنة نفسها جاء القائد الألماني فون در غولتز باشا كمستشار في الفيلق السادس (التنجي أردوي همايوني) وكان الألمان حلفاء العثمانيين في الحرب لكنّه مات في السنة نفسها ودفن

في احتفال مهيب ودفن في الباب الشرقي في المكان الذي تحوَّل فيما بعد إلى محل لبيع البترين. إنّ غالبية القادة الأجانب من الجنرال مود ومس بيل وغولتز والكولونيل لجمنت قتلوا أو ماتوا في بغداد ودفنوا فيها".[٤]

أضاف بلزاك العجوز بلهجة ساخرة وموحية: (نحن أيضًا عكس ما يتصور الناس عندنا زعماء أو شيوخ عشائر: (عشائر البو عبد. السحاجي في الموصل – الشيخ حامد الهاشم)، (البو دلّي في الكمالية – الشيخ منصور الديوان)، (البو نصيف في الكمالية الشيخ كريم بكر)، (البو خزام – المعامل أو حي الطري في البصرة – الشيخ بريس سند ونمر الغضبان)، (البو عكار – العثمانية الأميرية في الناصرية – الشيخ كامل عجيل)، (البو حليو في طراريد – الديوانية – الشيخ عزاوي مطر الخ)، لكننا كما تعلم – قالها ضاحكا – نسكن خارج المدن". كنت أريد أن أقول: وأين نسكن نحن أيضًا؟ مدن أم معسكرات اعتقال؟ فكرت مع نفسي (العزل. الغيتو. الحصار). الأمر نفسه معنا: الذات لا تُدرك كشيء أو ذات مستقلة في وجودها وكرامتها وكيانها الإنساني ولكنها تُكتشف من خلال استعمال الآخرين لها في الحرب أو في السياسة أو في السجن كمحارب أو مطارد: أنا مطارد أو محارِب أو ضحية إذن أنا موجود.

[٤] بعض حوادث بغداد في اوائل القرن العشرين من كتاب: بغداد القديمة، عبد الكريم العلاف

من نظرة سريعة إلى بعض مدن الغجر، يتضح نظام العزل الاجتماعي والجنسي والثقافي والتصنيف العرقي[٥]:

١: مستوطنة الكمالية وتقع على طريق بعقوبة القديم بمسافة ١٨ كلم عن مركز العاصمة ورغم أنّ قانون التسجيل العقاري رقم ٤٣ لسنة ١٩٧١ حرم الغجر من التملك، مع ذلك شيّدوا مساكنهم بأسلوبين: التحايل على القانون المذكور وذلك بتسجيل الأراضي التي تمّ شراؤها من الملاكين بأسماء العراقيين الذين يطمئنون إليهم بحكم علاقات ودية، وأما الثاني فعن طريق القروض - لا يمنح المصرف قروضًا للغجر لأغراض البناء - وتُعتبر أسرة حامد السراي أوّل أسرة غجرية سكنت الكمالية في عام ١٩٥٨ حيث كانت تسكن في بغداد الجديدة عام ١٩٥٦.

٢: حيّ المعامل في البصرة: يبعد عن مدينة الزبير بمسافة تقدر بنحو ١٥ كلم، على الجانب الأيسر لطريق السيارات العام زبير - صفوان، ويعرف باسم حي الطرب وكان سابقًا حلبة سباق خيل ملغاة وطراز السكن فيه يتراوح بين: الصرائف والكباري والخيم - وهو نظام بناء شبه عام في الأمكنة الأخرى.

---

[٥] كتاب: الغجر والفرج في العراق، الدكتور طه الحديثي، كتاب مرجعي في موضوع الغجر في العراق.

٣: مخيم أبو طراريد: يقع على الجانب الأيمن من الطريق الترابي القديم الواصل بين مدينتي الديوانية وعفك ويبعد عن مركز المدينة ١٥ كلم.

٤: السحاجي: يبعد عن مركز الموصل بمسافة ٢٠ كلم على طريق حميدات.

٥: العثمانية الأميرية: حي في ضواحي الناصرية على مسافة ١٠ كلم منها وعلى الجانب الأيمن من الطريق المعبد بين الناصرية - البصرة.

٦: الشراكة الغربية: تقع على الجانب الأيمن من الطريق المعبد الذي يصل بين مدينة السماوة وبحيرة ساوة بمسافة تقدر بحوالي ١٥ كلم عن المركز).

هذه المستوطنات تفتقر للشروط الصحية والتعليم والسكن والمياه ولم تدخل في النسيج الاجتماعي المحلي إلاّ عن طريق نظام الخدمات الجنسي أو السلعي كبيع الغرابيل والعطور والأواني والحلي وقراءة الكفّ والرقص والغناء في الحفلات والدعارة لدى بعض الأسر مع نظام قبلي وعائلي يشكل بنية سلطة القرابة والدم والعرق كبديل عن غياب السلطة كمؤسسة خدمات وحضورها كشرطة، وفي السنوات الأخيرة صار بعض الغجر يقَدِّمون خدماتهم لكبار المسؤولين وفي يوم

ما بعد زمن طويل سيقول مسؤول كبير في نهاية هذه الحكاية وبداية أخرى: (إنَّ قرارات كثيرة كانت تتخذ من بيوت الكاولية).

قال بلزاك العجوز ضاحكا: "اسمع، مرّةً سكنَّا على أطراف السماوة في الصحراء وأقمنا مخيمًا مرتجلاً ومؤقتًا حين جاءنا مسؤول من المدينة وطلب منّا أن نسمي تلك الخيم والصرائف والكباري باسم "قلعة برتو". كُتبت لافتة بالاسم دون أن نفهم. بعد أسبوع جاء مسؤول آخر وطلب رفع الاسم واللافتة. لم نفهم أيضًا. وبعد عدة أيام جاء المسؤول المطرود وشرب كثيرًا وأخبرنا بحكاية الاسم والطرد وقال إنّهم استدعوه قائلين: كيف يعقل لحي كاولية أن يحمل هذا الاسم برئاسة شيخ وقلعة برتو برئاسة زعيم أمة؟ لم نفهم أيضًا. هل فهمت؟

قلت: "لا أدري".

فكّرت: الزعامة كالحقيقة والمكان والسلطة والقداسة والشرف لا تتحمل أكثر من رمز واحد حتى لو كان الآخر شيخ كاولية في مستوطنة مرتجلة على تخوم صحراء منسيَّة. هذا النسيان ينشط فجأة حين يتعرض المكان المنسيُّ إلى تهديد سلطة الرمز والهيكل والقلعة.

"نسكن دائما خارج المدن". قال بلزاك.

"وهل نحن نعيش في الداخل كعيش حقيقي؟".

قال بلزاك مكررا: "قلت لك نسكن خارج المدن"، وأضاف ضاحكا: "كالجرب".

فكّرت: هذه هي سرديات التبغ بعد منتصف الليل. إذا كانت ذاكرة بلزاك العجوز، الهامشي الغجري والأجنبي، طافحة بأخبار الحروب والصلب والقتل ومشايخ العرق والدم والقبيلة فكيف الأمر مع غيره، مع المواطن الافتراضي؟ كانت الظلمة قد بدأت تشفُّ بحيث يمكن رؤية أشباح ليليّة تقترب وتبتعد، وقد لا تكون أشباحًا في الواقع ولكنها شخوص حكاياتنا، جيوش تزحف وطواعين وكوليرا وكولونيلات قتلى وطريد عاشق هارب مع حبيبته عبر البراري وهياكل بشرية مرمية في العراء ونساء راقصات ونائمات الآن وسيارات مارّة على الطريق العام وامرأة في مكتب منهمكة في تصميم حدود أو في صناعة ملك ودولة، وبزغت على غير توقع صورة رجل مشرّد في طرقات العاصمة يبحث عن مأوى وهو يتأمل هذا الليل، هذه الأشباح، هذا التاريخ المتجوّل في شاحنة أسطورية عبر القرون – صورة زهران قبل الاسم الجديد. كيف يمكن بناء حداثة حقيقية والبنى التقليدية في هذا البلد كانت وما تزال حية ومؤثرة سواء البنى القبلية أو الدينية أو العوائل السياسية؟ حكم العوائل قديم رغم الطلاء الخارجي والزعيق اليساري، وفي منعطفات كثيرة أظهرت المؤسّسة الدينية رصانة وأصالة وقوّة من أشدِّ الأحزاب يسارية لأنَّ منطق الصفقة والمساومة والتسوية لم يكن موجودا. أكثر هذه البنى التقليدية فاعلية هي المؤسسة الدينية العريقة في التاريخ: الشيخ ميرزا مهدي الشيرازي، الشيخ الشاعر محمد سعيد الحبوبي، أبو الحسن الأصفهاني، السيد محسن الحكيم الطباطبائي، أبو القاسم

الخوئي، كاظم الحائري، تقي المدرسي، محمد باقر الصدر، محمد صادق الصدر، السيد علي السيستاني، بشير الأفغاني، فياض الباكستاني، مصطفى الشيرازي، السيد حسين الحمامي، الشيخ كاظم الآصفي الخ.

أمّا الزعامة السياسية فهي موسميّة وظرفيّة تتهاوى في المنعطفات والعواصف، ممّا يؤكّد هشاشة البناء السياسي وعزلته بل وتفاهته لأنّه مؤسّس على فراغ فكريٍّ ونفسيٍّ وعاطفيٍّ. بعض زعماء الأحزاب الذين صنعوا تاريخ العراق الحديث واختفوا: "نوري السعيد – حزب الاتحاد الدستوري"، عبد الفتاح إبراهيم – حزب الاتحاد الوطني"، توفيق السويدي – حزب الأحرار"، ياسين الهاشمي حزب الإخاء الوطني"، محمد مهدي كبة – حزب الاستقلال"، عبد الله العمري – حزب الاستقلال الوطني"، ناجي السويدي – حزب الأمة"، ميشيل عفلق – حزب البعث العربي الاشتراكي، فهد يوسف سلمان – الحزب الشيوعي"، عبد المحسن السعدون – حزب التقدم"، عزيز شريف – حزب الشعب العراقي"، جعفر أبو التمن – الحزب الوطني العراقي"، كامل الجادرجي – الحزب الوطني الديمقراطي".

قال بلزاك العجوز وهو يشمُّ رائحة التبغ" كما عندكم زعماء أحزاب عندنا زعماء في الطرب والطبل والربابة. في حيّ الطرب: وحيدة خلف، هاجر عبيد، أميرة شاكر، دلال علاوي، بلسم نمر، أمريكا علاوي، أمل شريف، بشرى رستم، هند مصطفى، وأشهر

المغنّين والطبّالين وعازفي الربابة في حيّ الطرب هم: خيون بندر، موزان عطيّة، حمزة سلمان، غازي يوسف، فالح مطرود، يوسف علاوي، لطيف سلمان، كامل شعلان. أمّا في السحاجي في الموصل فقد اشتهرت المطربات: هاشمية حامد، جمهورية كريدي، خولة شلال وغيرهن الكثير، أمّا أشهر ضارب طبل في السحاجي فهو: ناجي فرحان وعازف ربابة هو: فواز حسين. في النعمانية كانت المطربة أسمهان عبد، وفي الطبل فرحان عبيد وفي العزف على الربابة حميد عبيد، في العثمانية في الناصرية حربية عمير، وفي أبو طراريد سامية عودة وناهدة عزيز، وفي الشراكة الغربية ريم سوادي، وفي الكمالية شكرية خليل، وحمدية صالح، امتحان عليوي، وكان صوت المغني إبراهيم عبود في ليل الكمالية يُبكي الطير".

تعبير قد لا نجده في لغات العالم لارتباط الغناء بالفرح إلاّ في خرائط مس بيل. أو يقول: (ربابة حميد عبيد تذبح الطير) و: (صوت شكرية خليل في السويحلي يحيي الميت) أو: (طبل ناجي معروف يصل إلى نجمة الثريّا).

تابع بلزاك العجوز: "هناك فرق كاولية وصلت دار الإذاعة والتلفزيون مثل فرقة حمدية صالح، وشكرية خليل، وساجدة عبيد، وريم سوادي وغيرها. فوزية جبار أم فرح حوم أو بياتريس كما

تسميها سجلت بعض الأغاني للإذاعة. كلٌّ هذه الأغاني في السويحلي والمحمداوي والهجع، والأبوذية، والجوبية الخ".

مراجع وأحزاب وثكنات وغجر وعشائر: هادل وجبور ودليم وخزاعل، بني حسن وبني لام وتميم وأسد وعبيد وقراغيل وبدير وبزون وجحيش وحجام وحطيط وحمدان وحواتم، برزنجية وجاف، زبيد وزوبع وشويلات وظوالم، منتفج وفتلة وكرابلة وكريش وكرطان وكعب... الخ. أديان وطوائف، وأعراق: مسلمون ومسيحيون وصابئة ويزيديون ويهود، عرب وأكراد وتركمان، كاولية وقرج وشعراء وبدو ولغات: عربية وكردية وتركية وفارسية وآرامية وعبرية وسريانية. كيف لهذا البلد أنْ يحكم بلون واحد؟ في بابل، مثلا، كانت المعابد مفتوحة لكل الآلهة: ٣٠٠ مكان عبادة للآلهة الأرضية، ٥٥ للإله موردخ، ٥٣ لآلهة متعدّدة، ٦٠٠ دار عبادة لآلهة سماوية، ١٨٠ للإله نركال وحدد، ١٨٠ لعشتار الخ.

الملكة الآشورية سميراميس – ٨٠٠ ق.م – استردّت بابل وبنت حولها الأسوار للحماية وبناء سدود عالية لصدّ نهر الفرات من الفيضان كما يقول هيرودتس وهو أوّل من كتب عن بابل عندما شاهدها ويكتب أيضا أنّ الملكة نيتوكريس زوجة نبوخذ نصر هي التي أحدثت تعرّجًا في مجرى الفرات ببناء قنوات وأمرت بحفر حوض

أعمق من النهر. فكيف تغير مجرى التاريخ إلى بحيرة دم وخرب جمال ملكات بابل؟

هل ستتلاشى مرجعية الطبل والزنجاري والعرق والدم والقبيلة كما تلاشى زعماء الأحزاب من الوجود تمامًا تاركين شعبًا يمشي في الشوارع في حفل تنكّري للأقنعة؟ من سيهرم ويموت البرامج السياسية أم صوت الكمان؟ الربابة أم البرنامج الحزبي؟ الطبل أم السلاح؟ الأغنية أم ساحة الإعدام؟ الشعر أم الثكنة؟ المفاعل أم الدمع؟ القصور أم الشاحنة؟ القانون أم المنعطف؟ أرصفة المنع أم الخطوات المتعثرة؟ من سيكون المسؤول؟ هل ستُلقى كلُّ هذه الفواجع على أشباح أم على أشخاص ويخرج الجميع أبرياء وملائكة من محرقة مستمرة؟

في رواية (كائن لا تحتمل خفته) لميلان كونديرا يتساءل توماس عن المسؤولية في انتهاكات أنظمة أوروبا الشرقية والنظام التشيكي في براغ بصورة خاصة حيث كان يظن أنّ هذه الأنظمة: *"من اختراع مجرمين فقط" لكن حواره الداخلي وتأملاته أوصلته إلى نتائج مغايرة، يقول توماس محدثا نفسه:(الأنظمة المجرمة لم ينشئها أناس مجرمون، وإنما أناس متحمسون ومُقتنعون بأنهم وجدوا الطريق الوحيد الذي يؤدي إلى الجنة فأخذوا يدافعون ببسالة عن هذا الطريق، ومن أجل هذا قاموا بإعدام كثيرين، ثم فيما بعد أصبح جليا وواضحا أكثر أن*

الجنة ليست موجودة، وأن المتحمسين كانوا إذًا مجرمين سفاحين. عندها، أخذ كل واحد يقوم بمهاجمة الشيوعية قائلاً: " أنتم المسؤولون عن مصائب هذا البلد (فهو معوز ومفلس) وعن خسارته لاستقلاله (فهو واقع تحت سيطرة الروس) وعن الاغتيالات القضائية. أما المتهمون فكانوا يجيبون: لم نكن عارفين. لقد خُدعنا. كنا مؤمنين بالقضية. نحن أبرياء في قرارة نفوسنا. كان الجدال يتمحور حول هذا السؤال: هل كان صحيحًا أنهم لم يكونوا عارفين؟ أم أنهم كانوا يتظاهرون بأنهم غير عارفين؟ وكان يفكر في أن السؤال الأساسي ليس: هل كانوا عارفين؟ بل: هل هم أبرياء لأنهم غير عارفين؟).

تساويت مع بلزاك العجوز في كل شيء، في الحكاية وفي الحكي، في الألم وفي المصير والمرجعية أيضًا، في النعاس كما في سرديات التبغ. قلت لكي أقطع الصمت الثقيل: "أنا مثلك تشردت في بغداد عام ١٩٧٢ كما اليوم وكان عليَّ أيضًا أن أدفع الويركو ــ ضريبة المبيت في العراء ــ للشرطة السرِّيَّة إذا عثروا عليّ لكنها ليست قروشًا. آلتجن أوردي همايوني لم ينحل، على العكس تناسل. هل نواصل الحكي أم النوم؟".

همس بصوت متعب: "بعد انطفاء السيجارة سنواصل الحكي".

وأضاف: "أفكر فيك وأجد أنّ ("جريمتنا" مشتركة). قال ذلك قبل مايك كرانغ بسنوات: (في جمهور يشاهد الأحداث تُخلق الهوية

المشتركة). فكيف إذا كان هذا الجمهور يعيش في جحيم مشترك؟ إذن الهوية ليست عِرقًا بل تجربة كالخلق والموسيقى والنشوة والعذاب والنبذ والمطاردة والأصالة والتضامن.

خُيِّل إليَّ أنّه يضحك ولكنه قال: "تلك حكاية طويلة سأرويها لك في مكان آخر". كل شيء مؤجل إلى زمن آخر أو مكان آخر بما في ذلك الحياة التي صارت حلمًا مؤجلاً ومتنقلاً. الداخل إلى مدينة يعرفها إمّا يبحث عن ذكريات أو أمل، إمّا عن الماضي أو عن المستقبل لأنَ الدخول إلى المدن كالدخول في حلم أو مياه نهر نوع من المتعة والبحث والمغامرة والرجاء لكنَّ النوم على حافات المدن والدخول المستريب والوجل فيها هو نوع من السطو كدخول كلب - كلب شرقي - إلى حفل فرح أو مأتم حزين. لم نكن نخترق مُدنًا بل نمرُّ بمهرجان تنكّريٍّ للأقنعة حتى دخان القرى والسهول والنوافذ (الشبيهة بنوافذ شاغال) والفوانيس المعلقة في فضاء صيفي ليلي ساكن، كل شيء يبدو في غير صورته الأصلية أو بمعنى أدق بلا أصالة حقيقية. ما هي الأصالة؟ هي الشيء في ذاته بلا تحوُّل أو مسوخيّة. في الشاحنة مثلا لا توجد حياة خاصة بما في ذلك الرغبة أو النوم أو الحلم ولكن هل توجد مثل هذه الحياة الخاصة خارج الشاحنة؟ في السرديات الجديدة تُصوّر أزمة العراقي على أنها أزمة هوية وهو وصف مسطح مجلوب من مخيال مستعار لأنَّ أزمة العراقي هي غياب العدالة وليس عنده ذرّة شكٍّ في هوية راسخة عبر قرون.

كنت أركض مع بياتريس أو فرح فالح حوم على ساحل بحري منعش وطليق، تحت شمس مشرقة وتحتنا رمل طري، وبياتريس ترش الماء على وجهي كعصفورة ثملة من الضحك والحرية والرمل والبحر والتفتح وكان جسدها مشدودًا كنصب مرمري لإلهةٍ أسطوريّة مفرطة في البهاء والنور والجمال والبراءة ولا أحد على الشريط الساحلي سوى الأفق البعيد وحين أرهقنا الركض والمرح جلسنا صامتين كأرنبين منهكين من الركض والنشوة وشعور داخلي بالنجاة.

فجأة لمحتُ سكّينًا تلمع تحت الشمس من بعيد في السراب الرملي، في الضوء الناعم والساكن الشبيه بإعلان سياحي. كانت السكّين معلّقةً في ضوء الظهيرة الفاتر وبياتريس ترتعش فوق الرمل وقطرات الماء تنساب فوق جسدها البلوري المشع في النور ولا أحد يتقدم أو يظهر سوى السراب الرملي والضوء الفاتر والساحل البحري الطويل والأفق. قلت لها مطَمْئنًا إنّ الأمر ليس حقيقيًّا وربما يكون سرابًا أو خوفًا وقلت لنفسي بنوع من عدم اليقين إنّ الأمر قد يكون حُلمًا آخر بكتاب قرأته قبل سنوات عن رجل اسمه ميرسو يقتل رجلاً على الشاطئ بسبب حرارة الشمس وحين غادرنا الساحل مررنا بساحة إعدام في ظهيرة محرقة، وكانت فصيلة الرماة قد انتهت توًّا من تنفيذ عملية الإعدام وكان القتلى يتدلّون من الأعمدة ورؤوسهم خضراء بلون العشب كما في لوحة لبيكاسو، وشعرت بالاختناق وبيد تلمس وجهي برقة وبلزاك العجوز يقول: "هل تشعر بشيء؟".

كانت الشمس تلوح من جهة الشرق، جهة ساحة الإعدام.

قلت: "كنت أحلم".

ضحك قائلاً: "كان ذلك واضحًا على وجهك".

الفصل الرابع

طريق سرديات التّبغ

سمعت حسين مردان يقول: "هل انتهت الحكايات؟"

قلت: "عبد الله كوران يقول: تبغ وكرزات وشاي وبنادق وليُقبل العالم"

"ليس عندنا غير الشاي والتبغ والكرزات" قال حسين ضاحكا وهو يحرك جمرات الموقد، وقد تحلّق حوله الجميع للإفطار المرتجل على مبعدة كيلومتر من الطريق العام وتلال المفاعل النووي أو سيراك أو تموز تلوح في الوهج الصباحي مسوَّرة بالأشجار والمدافع المضادة للطائرات والأسلاك الشائكة وحقول الأزهار.

كيف تستطيع سرديات التبغ المرتجلة بناء هذه البعثرة؟ لنعد مرة أخرى إلى جيرترود أو مس بيل وهي تكتب رسالة إلى أبيها منتشية من يوم عمل مرهق وشاقٍّ ومحاطة بالأوراق والخرائط والكراسي والوثائق وقد انتهت توًّا من ترسيم حدود الصحراء الغربية، ونقارن

هذه النشوة بنشوة حسين مردان مثلا وهو يبدأ بإعداد الموقد والإفطار والقهوة في الصباح، أو مشهد فالح حوم وهو يحمل إبريقًا ويبتعد لكي يبحث عن مكان مستور، أو بلزاك العجوز وهو يرتشف فنجان القهوة ويدخن. كيف يمكن شرح أو تفسير نشوة امرأة وهي تنتهي من ترسيم حدود بلد على الخارطة لكي تتحول إلى حقيقة على الأرض؟ هل النشوة هنا في الإنجاز أم في المغامرة؟ في السخرية أم في الخلق؟

لنعد أيضًا إلى ألويس موسيل المكلّف من إمبراطور النمسا وهو يعبر مدن الفرات الأوسط بقافلة جمال وبغال وخيول مثل الليدي آن بلنت والنشوة الناجمة عن سرب بطٍّ أو حقل أزهار أو بركة ماء في مكان قاحل أو بيوت طينيّة مطليّة باللون الأبيض تحت سراب ظهيرة ساخنة أو متعة أي جنرال غازٍ دخل من الجنوب، ونقارن بين كلِّ هذه المتع واللذائذ وبين لذة هذا الإفطار المرتجل في مكان طارئ وعابر وضيق.

فاسكو دا كاما ١٤٦٩ - ١٥٢٤ المعروف كرحالة اكتشف طريق الحرير البحري إلى الهند والمكلّف من قبل ملك البرتغال مانويل الأول بمهمة (اكتشاف الأراضي المسيحية وفتح الأسواق للبرتغاليين) أي الكتاب المقدّس في يد والسلاح في اليد الأخرى، كان هو أول من خرَّب المدن الآسيوية التي مـــرَّ بها ودكّها بالقنابل بل طالب الملك

بالسماح له بتدمير الكعبة وإزالة قبر الرسول.

ماذا نعرف عن هذا الوحش الذي لم يكتشف طريق الحرير كما تقول الروايات الغربية والعربية بل إنَّ مساعده أحمد بن ماجد الملاح العربي النجدي الماهر هو الذي فتح له الطريق بعد أن ضلَّ وقد ندم ندمًا مريرًا وألَّف كتاب (الفوائد في علم البحر والقواعد) حول تلك الرحلة لا يُذكر في كتب التاريخ المدرسي قال فيه بلغة تنضح أسفًا: (لو كان يعرف أنَّ هؤلاء الوحوش سيفعلون هذه الفظائع لما دلّهم على الطريق). بلا شكّ شعر فاسكو دا كاما بالنشوة وهو يسحق المدن الآسيوية التي لم تكن تعرف قبله أخلاق السوق الاستعماري في المراوغة والغشّ بل كان البائع والمشتري يتعاملون بناء على القسم والثقة والنيّة والوضوح.

هل نعثر على (علاقة) مرمية في الطريق؟ أم أنَّ العلاقة خلق؟ هل يتوجب على الروائي بتعبير ماريا فارغاس يوسا أن يكون كحامل خرج يلتقط أي شيء يصادفه: النظرات والوجوه والبطاقات والمشاعر والأشياء؟

سمعت بياتريس تقول وهي تضع يدها على كتفي كجنح عصفور حار وأليف: "لم أنمْ إلاّ قليلاً لأنَّك كنت تصرخ في النوم. هل كنت تحلم؟".

قال بلزاك العجوز ضاحكا كعادته: "من سيدفع الويركو اليوم؟".

"ليس عندنا ما ندفعه غير حفلة رقص مجانيَّة سريعة إذا تَطَلَّب الأمر".

قال ذلك مزاهر حوم وهو يبتعد قليلاً ويلوح في وهج الشمس كشبح انتهى دوره في مسرحية، وعليه الآن أنْ يختفي لكنه عاد كما يحدث في مثل هذه الحركات المباغتة وأضاف كمن نسي شيئًا: "نوال جياد حلمت الليلة الماضية أنَّها كانت في رحلة صيد لطيور الدراج".

علقت نوال وهي تتمطى في الضوء الصباحي المشع: "كذب. لم أقل هذا. حلمت بأنني مخطوفة في قصر كبير وحدائق وخدم وحقول أزهار وجاء مزاهر كي يستردني فطردوه".

هتف حسين كطفل عثر على هدية مباغتة: "وماذا فعلت أنت؟".

قالت نوال جذلة بنوع من الوضوح الطفولي: "شكرتهم على ذلك".

ضجَّ الجميع بالضحك. لا قيمة لحدود الصدق والحقيقة والجدية في سرديات التبغ بل الأهم هو كيف نحكي. ليس من المحتمل أن يكون قد طرد فعلاً في الحلم من القصر، ولكن قد تكون هذه رغبة راوي الحكاية أو نوال جياد أو الناقة كما يطلق عليها بلزاك العجوز لقامتها المشرئبة ومشيتها الواثقة والمتمهّلة كمشي القطا.

كنّا نقترب من نقطة تفتيش جسر ديالي، فصاح بلزاك العجوز: "حسين، قل لهم كاولية، كاولية"، وعندما تجاوزنا الجسر – على

يساره أكواخ وزرائب وكلاب - حاذينا حي الأمين. قبل بضع سنوات كنت أسكن مع العائلة في غرفة مستأجرة فيه بعد أن تركنا المدينة بما يشبه الهروب من مضايقات الأمن ونقل كلّ أثاث المنزل بسيارة أجرة صغيرة.

في هذا البيت عثرت على أرملة مصابة بكآبة تمنعها من النوم - تخاف من الموت نائمة - وتحولتُ إلى علاج ليلي للأرملة في السرير الواسع الباذخ حتى تخمد كمهرة منهكة وتغرق في نوم لذيذ وعذب في سكون الليل ورائحة أشجار الليمون وصرير الحشرات يكثف هذا السكون. عندما لم تتمكن العائلة من تحمل شظف عيش عشوائي ومرتجل، عادت إلى البلدة وتُركتُ أتسكع في شوارع بغداد، بينما تعافت، من سوء الحظ، الأرملة من رهاب النوم والموت في السرير وتحولت الحدائق العامة إلى سرير نوم.

كنا على مفترق طريق تلّ محمد - المشتل، حين صادفنا رتلاً من الدبّابات والعجلات العسكرية تسلك طريق بعقوبة القديم والطريق مغلق بسيطرة عسكرية مما جعلنا نغير طريق السفر. قال بلزاك: "حرمنا من لقاء أقارب في الكمالية".

قلت: "أنا أيضًا كنت أريد زيارة أقارب في الفضيليّة - مستوطنة المعدان".

قال حسين مردان وهو يستدير من نافذة الشاحنة بصوت عال: "سأمضي في طريق الموصل".

هتفت بياتريس وفالح وبلزاك في آن واحد بفرح:

" السحاجي، السحاجي".

قال بلزاك العجوز: "لدينا أقارب في السحاجي".

وأضاف بنبرة ملغزة: "هذا زمن سحاجي".

سألت من باب الفضول: "ما معنى سحاجي؟"

لم يجب. لكنه نقل الحديث إلى موضوع مختلف قائلاً: "هل تدري؟ طلبوا مرة أن أشتغل معهم كمخبر في الفوّار".

"من هم؟".

"من هم؟ هل يوجد غيرهم؟ قالوا لي حين قلت لهم إنَّ أحدًا هنا لا يمكن أن يكون خطرًا خارج المكان، إنهم يعرفون ذلك أفضل منّي وكلّ ما هو مطلوب هو أن أزرع هاجس الخوف في قلب كلّ زائر يأتي هنا بأن أقول له العبارة التالية فقط: (خذ حذرك لأنهم هنا. هذا كلُّ ما في الأمر).

"هل فعلت ذلك؟".

ضحك بلزاك عميقًا وبانتشاء عاطفي حار قائلاً: "وجودك معنا هو الجواب".

كان الناس على جانبي الطريق يقفون ملوّحين للشاحنة المارّة بصورها ومناظرها ورموزها وكتاباتها كما لو كانوا في انتظار هذا

العيد المتنقل في صباح صيفيٍّ مشرق وهادئ وطريٍّ قبل قدوم هجير الظهيرة. كان بلزاك شبه الأعمى يشرب الأشياء بنظره العاجز كما لو كان يبحث عن مكان أو ذكرى أو علامة. كان يتأمل ضوء النهار الفارّ بعيون تمثال إغريقي من المرمر دون أن يرى شيئًا محدَّدًا. سمعته يقول والضوء الصاخب يملأ محجريه المتفحمين: "أين نحن الآن؟". كانت قباب الكاظمية تتوهَّج تحت الشمس ــ التوهج نفسه الذي رأته الليدي بلنت وهي تحلم بسفر طيّب في صباح مرتقب قبل قرن تقريبا.

قلت" نحن في الطريق الى نينوى".

لم يقل بلزاك العجوز شيئًا واستغرق في تأمل عميق دون أن يكفَّ عن النظر إلى اللاشيء وهو يحدّق إلى الخارج الذي كان ينعكس في عينيه المتفحمتين كموقد رماد متروك في عراء شاسع لكنهما كانتا تطلقان بريقًا حادًّا وموحيًا كبقايا جمرات، تحت الرماد، توشك على الانطفاء. بلزاك الغجري يحلم بفرس كحيلان ولا يتحقق حلمه، وموسيل يبدل الخيول على الأرض نفسها في أي وقت.

كتب ألويس موسيل في كتابه "الفرات الأوسط": (في ١٠ أيّار ١٩١٢ امتطينا السروج في الساعة الخامسة ودقيقتين صباحا. وفي الساعة السادسة حينما كنّا شمالي بئر الغردقية، وصلنا إلى ركام سور "جلو" يمتد إلى جانبه الغربي منخفض غير عميق. إلى الغرب بدت

هضبة الشنانات العريضة، حيث توجد آبار اللباد والبراغيث. إلى الغرب بدا ضريح الحجيرة. في الساعة الحادية عشرة ظهرت فوق الأفق مئذنة عالية، وبالقرب منها تألّقت قبّة كالذهب في مدينة سامراء. وبدأت تظهر قبب أخرى وبعض الأبينة من خلال الوهج ما يخيَّل للناظر أنَّ بريقها وموقعها وشكلها يتغيَّر باستمرار. وأخذت أشعَّة الشمس تلفحنا بدون رحمة، وسرت رعشة في الهواء، وما لبث أن كان الوهج طبقة كثيفة انعقدت على الأفق الواسع، وتبدَّل مظهر المنطقة كلّها في فترات متقاربة. وشوهدت على الشرق، على ضفاف دجلة، خرائب الاسطبلات وخرائب وقرى: القبان، المعيبر، أم شعيفة، تلّ المصابيح، الغضاضير، البحيرية، تل ذهب).

(وفي الساعة الثانية عشرة وخمس وأربعين دقيقة استدرنا قليلاً إلى اليمين من ربوة السدّ، وعبرنا في الساعة الواحدة جدولاً قديماً، واخترقنا سهلاً مقفراً أبيضَ مغطّىً بنباتات العجرش والشفلح وأشجار السدر. إلى الغرب كانت نهاية ربوة السدّ، وإلى الشرق خيام فرق العمال المكلّفة ببناء سكة الحديد. وهنا تابعنا الطريق العام المتجه الى الشمال. وكان الى يسارنا سفح صخري يرتفع ارتفاعا تدريجيا سرعان ما تحول الى صف من الأجراف العالية تطلّ على وادي دجلة وتحجب الرؤية من الناحية الغربية. إلى جهة الشمال الشرقي توجد بضعة أكواخ تتألف منها قرية عابد. في السهل المتموّج، غربي العاشق، يوجد البئر الطبيعي المسمى الأجودي

وخرائب الحويصلات. في الساعة الرابعة وعشرين دقيقة كانت على يسارنا أجراف "كهف كلب" والمغارة التي تحمل الاسم نفسه. على اليمين رأينا سامراء الحديثة، وخرائب المدينة القديمة، المهجورة منذ وقت طويل).

بزغت في الذاكرة فجأة ذكرى الأرملة والسرير والليل وصرير الحشرات ورائحة أشجار الليمون والتأوه المتحشرج وغرز المخالب في الظهر والتلوي المتوجع في الفراش كأفعى تستحم بالرمل والشمس مع صور حدائق وساحات عامة وشوارع وأقدام راكضة ورغبات صدئة وتداخلت مع صور خرائط ورسائل ووثائق وسيدة ترسم بقلم الرصاص حدود صحراء وتلوّنها بلون رملي غامق، ثم تجلس مرهقة مداعبة كلبها النائم قرب وطن يتشكّل على الورق.

قال بلزاك العجوز وفي الأفق قباب متوهجة تلمع تحت الشمس وأشجار السدر تستحم في الضوء الحارّ: "هل حدَّثتك عنّي كحودر - عاشق هارب - أم لا؟"

وقبل أن أجيب قدَّم لي سيجارة قائلاً: "يستطيب الحديث مع السيجارة".

مرة أخرى سرديّات التبغ لمهجورين من الطمأنينة والكلام العلني والحكي والمزاح والضحك والأمل. قال بلزاك وهو يتأمل بالعيون المطفأة الرمادية المتيقظة كبقايا موقد منطفئ أو يوشك "ليست هناك

بداية لهذه الحكاية ولا نهاية. إنّها مثل كل حكايات الكاولية لا تبدأ ولا تنتهي ولكنّها تدور مع الزمن كعاصفة دوّارة".

قلت: "هذه أفضل الحكايات. كان يجب أن أسمّيك بورخيس أو كالفينو أو أمبرتو أيكو".

نظر بلزاك عميقًا تلك النظرة الفارغة والضاجّة وقال: "كان في الكمالية راوي حكايات يشبهك اسمه السيد هذال".

قاطعته: "السيد؟ من أين لحقه هذا اللقب؟".

"كان يقول إنّه ليس من الكاولية ومن سلالة الرسول وصدقناه لأنّنا نحتاج أن يحكي لنا قصص التاريخ القديم. هل تعرف؟ أنّ الكاولي لا يكتب حياته اليومية كما تفعل أنت ولا يدوّن ولا توجد عنده في المنزل سجلات أو وثائق، والوثيقة الوحيدة التي عندي هو عقد شراء حصان فهو يحمل هوية أفضل مني، والصور الشخصية، وفي السنوات الأخيرة بدأت بياتريس تكتب مثل هذه الأمور بعد أن علمتها بنفسك وهي صبيَّةٌ القراءة والكتابة. قل لي زهران هل تشعر بالحرج من وجودك معنا؟"

"لا. أشعر بالحرج من وجودي خارجكم. تحولتُ إلى خفاش وغجري بالتجربة".

تلك هي فكرة فرويد عن تكوّن صورة الذات التي لا تُرى إلاّ من خلال آخر كطفل بعمر سنة ونصف ليست عنده صورة ذاتية

عن نفسه ولكنّه، فجأة، ينظر في مرآة ويكتشف نفسه: الآخر هو المرآة. ولكن ماذا إذا كانت هذه المرآة مشوَّهة؟ ماذا لو عاش إنسان حياته كلها في منزل محاط بالمرايا المشوهة حتى آخر لحظة من حياته؟ كيف ستكون صورته عن نفسه؟

برقت في عينَي بلزاك العجوز منائر متراجعة وألق ضريح يومض في ضوء الظهيرة الساخنة بعد أن صارت الشاحنة تمضي برتابة الطريق الطويل بمحاذاة سامراء وكهوفها وأجرافها الصخرية (غاب فيها المهدي من عسس شرطة العباسيين ولم يظهر حتى اليوم) ونباتات العجرش والشفلح وأشجار النخيل ساكنة في النور المحترق.

ضوء الظهيرة في الطريق العراقي يوحي بالهجران واليتم. ليس اليتم المعروف ولكنه نوع من الانفصال عن العالم والذات التي تتحوَّل إلى شيء فائض عن الحاجة أو في أفضل تعبير خارج الجسد. شيء أو ذات يمكن التفرّج عليها كشيء مهمل لا يخص أحدًا. هذا التخلّي لا يشبه التخلّي الصوفي في الاندماج في النور ولكنَّه يشبه تخلّي الأفعى عن جلدها دون أن يترك أثرًا أو شعورا بالخسران لكنَّ المشكلة تبدأ حين تنشط هذه الذات في لحظة ما من قيعان منسيَّة في الظاهر وتحسب قائمة الخسارات الهائلة.

أشكُّ في أنَّ بلزاك العجوز سيروي بذات واحدة منسجمة كلَّ هذه المراحل. من غير الممكن لذات أن تتماسك في الفوضى والقلق والعواصف. التهشّم والخلخلة واللاتوازن أمام الظلم المتكرّر والمتواصل هو نوع من ردود الحرية وليس مرضًا كما تعكس العين المسطحة. توازن مس بيل وهي تصمّم حدود وطن على الورق لا يشبه توازن مشرَّد أمام رياح الكراهية. التوازن الأوّل ناجم عن قوة وسيطرة واسترخاء والتوازن الثاني ناجم عن عزلة وتوتّر، أيّ شكل من أشكال الاستجابة للتحدّي. التوازن القلق هو استنفار الجسد وحشد الطاقة لكن توازن مس بيل وفرحها بنهاية يوم عمل مخصَّص لتصميم حدود صحراء هو توازن القوّة المسيطرة، قوة كولونيالية وليست قوّة فردية.

فرح وتوازن وغطرسة مس بيل وحتى الوقت الفائض المتاح لها في اليوم الأخير لكي تفكّر وتوصي بكلبها (وليس البلاد التي خطّطت حدودها وعلمها) ليس موجودا في الداخل وفي ذات جيرترود بل في الجيش المسلح. هذا الجيش يموّه على الهشاشة ويُظهر غطرسة شخصية قشرية كما يفعل النباح لكلب موشك على الموت. حين شعرت أنّ دورها قد انتهى، ماتت كئيبة: القوة الداعمة للجبان والغازي رُفعت.

فرح مس بيل هو فرح الغطرسة وفرح بلزاك العجوز فرح مختلس، ليس نتاج التواضع بل المذلّة الصامتة التي تعاش كعضو

جسدي مصاب وواخز ومغطّى. مغطّى بماذا؟ بالسيجارة، والضحك، والمزاح، والحكي المستمر، والرقص، والغناء، والموسيقى، والنوم السعيد المتخلّي عن كلّ طموح وأمل. فرح الإذلال وسعادة التخلّي عن كلّ طموح وأمل هو نوع من الحرية النفسية يشبه اليأس أو الاستسلام أو موت الرغبة.

قلت الرغبة وأقصد الشهوة التي تعني هنا التخلّي عن أيّ شعور بالأصالة لأنّ الأصالة خلق كالشهوة والمتعة والفنّ والحكي والحبّ والأمل والحرية. بهذا المعنى: بلزاك العجوز في هذا التخلّي الشّاق والمرهق والطويل، في هذا التمرين على قبول الذلّ، أكثر حرية من سيّد العوالم المتخيّلة ويكاد نومه يشبه نوم حاكم عادل في طريق عام، أو مفلس في قافلة أو غريق ناج ومبلّل تحت المطر. الخوف عند بلزاك لا يشبه أيَّ خوف، لا يشبه خوفي أيضًا، لأنّنا نحلم بشيء ما ونطمح إلى آخر، أي أنّنا بلزاك العجوز في طفولة واهمة أو حالمة قبل أن يتخلّى عن كلّ طموح.

عندما قطع رتل دبابات وعجلات عسكرية الطريق إلى الكمالية، كان البديل الفوري هو زيارة أقارب في السحاجي، أي أنّ الصداقة والزيارة كالأمكنة في الطريق القادم، في الآتي، في المؤمّل والموعود. لا أنا أستطيع أن أكون بلزاك العجوز في هذا التخلّي المنقذ لأنّ الطريق إلى ذلك طويل، ولا هو يستطيع العودة إلى الحلم والطموح لأنّ هذه العودة مستحيلة وليس لأنّ الطريق طويل فحسب. هذا هو لغز

حيوية التخلّي المدمّر عن كلّ أمل وهو لغز استمرارية بلزاك العجوز وقبيلته: العيش مع الذلّ إدمان كالعيش مع الحرية مع فارق جوهري: الذلُّ جريمة والحرية طبيعة.

الحصان العثماني الذي سحل عباس السبع سنة ١٩٠٩ في شوارع بغداد حتى السراي وكلب مس بيل وفرس الليدي بلنت هو ما تركه التاريخ لنا من وقائع. موسيل ليس سيِّئًا في وصفه الشاعري الدقيق والمحايد ولكن في الغاية: لا يعقل أن يكلِّف امبراطور يجلس في شرفته في القصر الجبلي الريفي المطلّ على ضفاف الدانوب ويرسل لمجرد المتعة والبحث موسيل لكي يقيس كلّ ذرة تراب على ضفاق الفرات.

كان موسيل وهو يمرُّ على الطرق نفسها (التي تمضي فوقها الشاحنة الآن) يرى كلّ عشبة وربوة وصخرة وجرف ونهر وشجرة ومئذنة لكن بلزاك وهو يمرّ الآن فوق الطرق نفسها لا يرى شيئًا في الخارج لكنَّه يرى ماذا فعل هذا الخارج وهو ينعكس على سطح حياته. ماذا فعلت، مثلا، ساعات مس بيل، وخرائط موسيل ولورانس وبقيَّة القافلة.كان موسيل لا يرى الأمكنة في الحاضر فحسب بل يراها في الماضي والمستقبل ويتخيَّلها مسرحًا لأحداث في الطريق كما رآها ولفرد سكاون كطريق مستقبلي للهند. صحيح أنَّ بلزاك فقد دهشته كما فقد شهوته أمام الحياة لكنَّنا ندهش من تكرار

حوادث التاريخ ليست لأنها صادمة وغريبة ومثيرة ولكن لأنّنا نجهل هذا التكرار بل نجهل هذا التاريخ ــ لا نقرأ حتى تاريخ القهر المرسوم بدقّة على أجسادنا.

نحن في متاهة وموسيل ومس بيل والليدي بلنت ولورانس وغيرهم أمام خرائط. نحن أمام الغاز وهم على مقاعد معاهد الجغرافية العسكرية والتاريخ والأساطير. نحن نصنع ثورات وهمية في حانات قذرة وهم يصنعون منافينا القادمة. موسيل، مثلا، طبّال ماهر لكن بلزاك راقص مذبوح. مس بيل تصنع حدودًا وأنا أتيه فيها مشرّدًا، لورانس يعشق في صحراء ونحن نتساقط قتلى اليوم من هذا العشق. أين العلاقة؟ هل العلاقة ثوب جاهز أم خلق واكتشاف؟

لماذا لا نتصرف كـ (شقاوات) بغداد القدماء؟ لأنّ السلطة تغوّلت، أولاً، وثانيًا، لأنّ الإيديولوجيا التي تمحو وتدمج وتحذف لا تسمح بوجود عصابتين في مكان واحد. أوائل السبعينيّات تمّت تصفية هؤلاء (كغيرهم من المثقّفين والسياسيين والضباط) في الشوارع، علنًا، كصيد السّاحرات في أوروبا في القرون الوسطى وكصيد الكلاب في شوارعنا العريقة في تقاليد السَّحل والاحتفال والصمت الضاجّ.

هل تستطيع النساء في زمن سيّد الواقع المتخيَّل أن يهتفن خلف جثّة عبّاس السبع (عباس السبع يا مطّيع التجار) المسحول بحصان

كما حدث في عام ١٩٠٩؟ هل يستطيع أحد اليوم أن يهتف بحياة سبع حقيقي أعدم بتهمة التنكّر بجلد أرنب؟ لكن هل سقط السبع في ساحة حرب؟ بشهادة علي الوردي وعبد الكريم العلاف إنّ السبع لصٌّ وقاطع طريق سقط أثناء سطو على منزل. هل حزن وغضب وتضامن الناس على السبع المسحول بحصان على القوة الغاربة أم على الضعف الواضح؟

لا يمكن لسبع في العالم أن يُسحل بحصان إلا إذا كان (علفه تبن)؟ لو كان الأمر كذلك فستكون دهشة سلمان المنكوب المغني صحيحة (شفت عكروك ــ ضفدع ــ يعلس راس حية) من دون أن يقرأ أو يعرف سلمان المنكوب جاك دريدا أو موريس بلانشو أو جيل دولوز عن: لعبة قلب السرديَّات. التجار الذين طوّعهم السبع وأذلهم، أليسوا مواطنين لهم حصة في الشفقة إنْ لم يكن في القانون؟ والسَّحل في الشوارع، الحبال، والتقطيع، وحرق الضحية... الخ، هل هو جديد؟ نحن الآن بلا عبَّاس السبع رغم أنّه يتناسل على صور كثيرة في كلّ مرحلة لأنّ الحارة أو القلعة أو الإيديولوجيا لا تتحمَّل سبعين في مكان واحد.

ميلان كونديرا تشيكي وألويس موسيل تشيكي المولد أيضًا: الأول روائي قاوم الدكتاتورية والتشابه (التشابه يخلق الدكتاتورية) والثاني عمل لمصلحة امبراطور نمساوي: كلاهما اليوم مع فارق الزمن

تساوى في التفكيك: الامبراطورية النمساوية المجرية تفكّكت وتبعتها تشيكوسلوفاكيا. الأرض التي مشى فوقها موسيل شبرًا شبرًا، واقفة اليوم على قرن ثور. من يحدس بمزاج الثور خاصة إذا كانت قرونه مركبة على رؤوسنا، ونحن نعيش بلا عبّاس السبع، والحصان جاهز، ومُنتظر؟

شقيق الويس موسيل الروائي النمساوي المعروف روبرت موسيل مؤلّف رواية الصبي تورليز (والفيلم الشهير للمخرج الألماني شلوندوروف) هل كان يروي لشقيقه حكايات بلد ألف ليلة وليلة كما يروي لي الآن بلزاك الكاولي حكاياته؟ كيف تحكي خرائط الويس وكيف تحكي مخيلة روبرت؟

"هل أواصل الحكاية أم الصمت؟" سأل بلزاك.

"الشيء نفسه". قلت باقتضاب. نحن لا نصمت حين نصمت.

قال: "كنا يومها نسكن في ضواحي المدن كما اليوم وندخلها للعمل والغناء وبيع الغرابيل أو الطيور خاصة صيد القبج أو الأسنان الذهبية وحفلات الغناء وغيرها. كنا رحَّلاً أي كوجر عدا قبائل القرج الذين يستقرون مؤقتا في مناطق معينة مع حيواناتهم خاصة في المناطق الجبلية بين خليفان وسنجار وحرير والقلعلة في كركوك ودهوك وسهول السليمانية والمثل الكردي يقول عن القرج (دكه كوديكبت قره جانه) أي يتشاجرون كديوك القرج وهم ليسوا

الغجر فلهم صفاتهم ولغتهم وعاداتهم وقرج لفظ تحقيري مع انهم قبائل ربما قدموا من مدينة (كرج) الإيرانية، وبسبب الترحال المستمر دخلوا في معارك مع المزارعين الأكراد لدخول حيواناتهم في الأراضي الزراعية في الصيف وهناك مثل كردي يقول (ثلاثة أشياء مزعجة: القرج والدجاج والذباب) ولغة القرج غير لغتنا لأنهم يتكلمون الكردية بلهجات المنطقة: في الموصل ودهوك وزاخو يتكلمون اللهجة الكرمانجية، في حين يتكلم قرج كركوك اللهجة الكورانية وهناك من يتكلّم التركية خاصّة في قلعة كركوك وأحيانًا العربية والفارسية والغجر تكونت لغتهم الرطين من خلال الترحال بين مناطق إيرانية وعربية في حين تكونت لغة القرج خلال الترحال في المناطق التركية والكردية. لغة الغجر لغة المنطقة التي فيها يسكنون.

تابع بلزاك: "كنّا يومها نمرُّ بمحلة العرب في أربيل في سنوات الثلاثينيات وتحديدًا أواخرها وربما في عام مقتل الملك غازي الغامض في حادث سيارة وكنا نخيِّم قرب خليفان قادمين من بغداد بعد موت الوجيه وبيع الخيول، ونعمل في صنع الغرابيل وصيد الطيور عندما وقع نظري على ريم في جمال القمر. كانت ابنة حداد قرجي من خليفان تبيع السلال المصنوعة من أغصان الصفصاف وبعض الأشياء المترلية، فشعرت أنَّ صاعقة ضربتني. عرفت أنَّهم يقيمون على سفوح خليفان في بيت منعزل وكنت أذهب هناك كلَّ يوم بحجَّة صيد القبج

الذي يحتاج صيده إلى فخٍّ توضع فيه الأنثى في قفص وتطلق هديلاً عذبًا ويأتي الذكر إليها لكي يقع في الشرك".

قلت ضاحكا: "كان شركًا لك".

ضحك بلزاك وتابع: "نعم. حتى شعرت أنَّ الفتاة بدأت في الاقتراب منّي وتعرفنا أكثر. قالت لي: "أنت كاولي وأنا قرجية ومن غير المعقول أن يسمحوا لنا بالزواج"، فقلت بلهفة: "والحل؟" أجابت حازمة: "الهرب". هكذا تركت الأسرة خلفي في صباح مثلج وهربنا إلى أربيل دون أن نعرف إلى أين. كانت معنا بعض النقود فركبنا إلى بغداد، وعلى أطرافها الجنوبية عشنا مع غجر يقيمون هناك. بدلت اسمها من ريم إلى وحيدة مسرهد وتغيّر اسمي الحقيقي من حوم إلى مطرود، ولكن مشكلة ريم أو حميدة هي اللغة القرجية، أمّا بالنسبة لي فلم تكن هذه مشكلة لأنَّ ترحالنا في كلّ المدن جعلني أستطيع تدبير الحال مع كلّ اللهجات واللغات لكن بتفاوت. لم تكن علاقات الغجر قويَّة والفضول الغجري لم يكن موجودا كما اليوم وهو فضول حصل مع الاحتكاك بالمدن. كان الناس مشغولين بالسكن والطعام والطقس. لم أعد لا أنا ولا هي نعرف مصير عوائلنا وأصبحنا مطاردين من كلا العائلتين وأنجبت منها ثلاثة عشر طفلا ماتوا جميعًا إلاّ فالحاً ومزاهرَ وحين ماتت قبل عشر سنوات وهي تغزل ثوبًا نظرت إليَّ نظرة غريبة قبل أن تقول: "حوم قدم حشما لأهلي وليغفروا لي". ماتت. بحثت عن أهلها وأهلي في كلّ مكان. وجدت

أهلي على أطراف الناصرية وأهلها في سنجار وفعلت ما طلبت مني ريم وقدمت أختي فدية".

صمت طويلاً وأضاف ضاحكاً: "وحيدة ومطرود ولا شيء آخر كما لو أنّنا ولدنا من العدم. أين وصلت الشاحنة؟"

" في الطريق إلى برتو"

" ماذا؟"

– قلعة برتو.

الفصل الخامس

طريق قلعة برتو

قال بلزاك العجوز مترعجًا: "كراهية الكاولية بسبب سمعة الدعارة وكما تعرف أنّ هذه المهنة مقتصرة على بعض البنات الهاربات إلى هذه المدن ولكن حتى من مارسوها لم يلحقوا ضررًا كبيرًا بأحد".

قلت: "لا تستغرب أبدًا حين تتحول الدعارة الأخطر التي تحوّل الناس إلى بهائم تزحف من الجوع والذل والنفي، دعارة السياسة، إلى إيديولوجيا مقدسة، ونزوات الأفراد إلى جرائم. هل يعجبك أن نصمت أم أحكي لك حكاية موسيل؟".

لم يتكلم لكنّ ذلك لا يعني أنّه صامت. مرَّةً كان مستغرقًا في صمت عميق حين طلب مني ومن حسين مردان أن نبحث له عن ابن عمٍّ كنّا نعرفه معا ذهب إلى بغداد و لم يعد أبدا وهو بلا وثائق واسمه رويّث الحلو. ضارب طبل خشاب ماهر وقد مرّت على ذلك عدة

شهور والحلو غائب. فتّشنا في الأمكنة المتوقّعة فلم نعثر على أثر أو خبر ومن نصيحة الدكتور علي كمال أخصائي الأمراض النفسية والعقلية الشهير الذي تعرفت عليه من مراجعة مستمرة لبياتريس بعد صدمة قتل الأم بحضورها وكان نازلاً من عيادته في حافظ القاضي إلى موقف السيارات المقابل، ذهبنا إلى كليَّة الطب في بغداد للبحث عن الحلو فربما استُعمل كوسيلة إيضاح في مختبر طبي كمجهول.

"لكن لا تنقصهم الجثث هذه الأيّام يا دكتور؟".

لم يعلق ونظر إليّ بشعره الرمادي المبعثر ووجهه الضامر وملابسه البسيطة ونظراته الغائبة بحيث يبدو أقرب إلى هيئة الفنان منه إلى أخصائي في الأمراض النفسية والعقلية، وسأل: "كيف حال بياتريس؟".

"بخير وقد تعافت".

"كُنْ حذِرًا فهذا النوع من الصدمات قد يظهر في فترة لاحقة؟".

"شكرا لك".

علّق حسين مردان أو كوران في الطريق ضاحكًا: "يبدو صاحبك الطبيب معتوها". وكان ذلك فعلاً، لكنّي قلت: "شوف مضرط، إمّا أن تسكت أو أسلمك إلى بار العربنجية هذا – كان يقع أسفل عيادة الدكتور تماما – أو بار شريف حداد القريب لكي تواصل فيه تمرّدك المسلح كما فعلنا في كلٍّ بارات بغداد، وفي النهاية صرنا كاولية كبديل عن الإيديولوجيا الثورية ونبحث الآن عن كاولي بدل كارل

ماركس وريجيس دوبريه وماوتسي تونغ والقرامطة".

بعد الحديث مع الطبيب المسؤول في الكلية، طلب منّا ولو علامة واحدة أو اسم أو أيّ دليل خاصة وأنّ الحلو إذا كان موجودًا في مختبرات الكلية فهذا يعني أنّه هيكل عظمي فقال حسين مردان في لحظة ملهمة من خبرة الجبل: "عندما غادر المنزل لآخر مرّة كانت على سترته البيضاء كتابة بقلم أحمر كتبها زبون سكران من الخلف تقول: غزال وما يصيدونه". فضحك الطبيب وهزّ رأسه قائلاً بارتياح: "غزالكم موجود، تعالوا".

فُتح باب المختبر وأشار الطبيب إلى هيكل عظمي يقف وقفة ملكية لم يقفها الحلو في حياته وعلى جانبيه باقات زهور وعطر منعش وخلفه نافذة مطلّة على حديقة كما لو أنّ الحلو انتهى من التأمل الآن وفزّ من دخولنا وبدا على وشك أن يصرخ ويهدّد بطردنا وتركه يعيش في نعيم حقيقي في موته بعد أن تعذّر ذلك في حياته. رأيت حسين مردان ذاهلاً من هذا الاحترام المشعّ في كلّ مكان والقيمة الطارئة للحلو والزهور والنافذة والحديقة واستدار ينظر من الخلف مدقّقًا في الهيكل العظمي وهو يقول: "أبحث عن أثر رفسة في الضلع الخلفي تعرض لها مرّة من زبون وبصق دمًا". قال الطبيب كاسرا الاستغراق والذهول والصدمة: "في سجلاتنا توجد تلك

العبارة التي وجدت على خلف سترته وعثر عليه ميتًا بنوبة قلبية في محطة القطار".

قلت: "كانت أمنيته الوحيدة أن يسافر في قطار".

"مات في مكان حلمه". قالها الطبيب لا أدري هل كان يسخر أم يؤاسي؟ تكلّم كثيرا لكني لم أصغِ تماما بل كنت مبهورا بكلّ شيء خاصة عندما بدا في تكشيرة الحلو العظمية وكأنه على وشك الصراخ أو العويل من حضورنا والخشية من دفنه في مقبرة مهملة وترك هذا المكان حيث يقف كلّ صباح أمام حشد من الطلبة والطالبات بهذه الوقفة البابوية والحديقة الخلفية ورائحة الزهور والمكان المفرط في النظافة.

قال حسين ذاهلاً: "لا يحتاج الحلو على هذه الوقفة غير طبل خشاب".

"ماذا قرّرتم؟". تكلّم الطبيب وهو ينظر في ساعته.

قلت بدون تردد: "هذا أفضل مكان له، شكرا".

وخرجنا و لم نخبر بلزاك العجوز بتلك المقابلة المثيرة.

"ما هي حكاية موسيل يا زهران؟" سأل بلزاك.

o

لم أقل شيئًا ولكن صور رحلة موسيل حية في الذاكرة. كتب الويس موسيل عن هذا الطريق نفسه الذي تمضي فيه الشاحنة: "في

الساعة الخامسة وخمس دقائق خيَّمنا على بروز صغير يطلُّ على النهر مباشرة، أسفل قصر العاشق... - هامش لابن جبير يقول عن رحلة له: إنَّه خيَّم قرب قرية تعرف بالحربة ونزل في الصباح على شطّ دجلة بمقربة من حصن يعرف بالمعشوق ويقال إنَّه كان متفرجًا لزبيدة زوجة الرشيد -". أما الرحالة ثفنو، يواصل موسيل، - الرحلات، باريس، ١٦٨٩، المجلد الثاني، الصفحة ٢٠٦ - فيقول إنَّه شاهد على اليمين قرية تسمّى عشوق وعلى اليسار قرية تسمّى العاشق وأخبره الأهلون: كان يقيم في أحداهما الخليفة وتقيم حبيبته في الأخرى... من الضفّة اليمنى الصخرية تنبع على حافة النهر تماما، عين يتدفق منها ماء عذب، أحسن وأبرد كثيرا من ماء دجلة. على مسافة قريبة من هذا المكان كانت جماعة من أصحاب الرمث - الأكلاك - العائدين من بغداد قد استلقوا على الأرض طلبًا لراحة قصيرة. كانت حميرهم محمَّلة بسلال كبيرة ملأوها بأكياس مخيَّطة من جلد الماعز المدبوغ. يرحل أصحاب الرمث بهذه الأكياس حتى كردستان حيث يبيعون الخشب والحبوب والصوف والزبد، ثم يصنعون أرماثا من الخشب يربطون في أسفلها قِربًا جلدية منفوخة، ثم ينحدرون بها في دجلة إلى بغداد. وهناك يبيعون كلَّ شيء، ما عدا قرب الجلد، وتحمّل هذه القرب ثانية على حمير يجلبونها معهم أو يشترونها في طريقهم، ويعودون أدراجهم للمتاجرة مع الأكراد. في الساعة الرابعة وثمان وخمسين دقيقة صباحًا من يوم ١١ أيّار سنة ١٩١٢ سافرنا بمحاذاة الضفة الشرقية لنهر الإسحاقي، وإلى اليمين

منها، على الضفة اليسرى من نهر دجلة، ارتفعت أسوار أشناس ومآذن أبي دلف...". في الهامش توضيح يقول: يذكر ابن سرابيون في العجائب – مخطوطة في المتحف البريطاني – أنّ الإسحاقي نهر أوّله أسفل من تكريت بشيء يسير ويمر بطيرهان ويجيء إلى قصر المعتصم بالله المعروف بقصر الجصّ وهو يقع على الضفة اليمنى فوق قصر الهاروني، ويقابله على الضفة اليسرى قصر المعشوق وهو مطابق لقصر العاشق اليوم. ويحدد ياقوت في المعجم مجلد أربعة الصفحة ٥٦٨ إن المطيرة كانت متنزّهًا لأهل بغداد وسامراء وكانت تقع على بعد فرسخين أسفل من القصر الأخير".

يواصل موسيل: "صعدنا إلى هضبة المطلع في الغرب، وبدت في النهر جزر متعددة مغطاة بأشجار الحور كأنّها قطع سوداء، غير أنّ الضفّتين ابتداء من العاشق، كانتا عاريتين من أي أثر للأشجار. إن بيوت تكريت الحديثة تغطّي نتوءًا صخريًّا من مرتفع يقع في الجزء الشمالي الشرقي لبقعة كثيرة الأطلال. يسكن تكريت نحو ألف عائلة من بينهم كثير من اليهود ولكن ليس منهم أسرة مسيحيّة واحدة. غادرنا مدينة تكريت المهملة وانطلقنا في سهل مقفر متجهين غربًا".

في الملحق الحادي والعشرين من كتابه "الفرات الأوسط" يتحدث موسيل تحت عنوان "برتو وتكريت" قائلاً: "يظهر اسم تكريت في التاريخ البابلي في لوحة المتحف البريطاني التي تحمل رقم ٢١٩٠١

الأسطر ١٦ - ٢٢ سقوط نينوى، ففي عام ٦١٥ ق. م هاجم نبوبو لصّر - قبل نبوخذ نصر - ملك بابل، مدينة آشور - قلعة شرقاط - إلاّ أنّه أجبر على الهرب متبعًا الضفّة اليمنى لنهر دجلة حتى مدينة تكريتين. وحمل جيشه إلى الصعود إلى قلعة برتو حيث تمّت محاصرته. وعلى مدى عشرة أيام قام ملك بلاد آشور بهجمات عليهم إلاّ أنّه لم يستولِ على المدينة فعاد إلى بلاده. وبما أنّ قلعة برتو كانت الجزء الأكثر منعة وأهمية في مدينة تكريت الواقعة على تلّتين - لهذا استعملت صيغة المثنى تكريتين - فقد أطلق الآشوريون اسم برتو على المدينة نفسها[٦] - "ويتبع بطليموس الاستعمال الآشوري - الجغرافية.ج.٥، ٩:١٨ - هو الذي عرف أيضًا بلدة برثا حوالي النقطة التي تقع عندها تكريت اليوم".

"ويروي أميانوس مارسيلّنوس، يتابع موسيل، عن سابور الثاني - ٣٠٩، ٣٧٩م - إنّه بعد أن استولى على بضعة حصون صغيرة حاصر حصن فيرتا القديم، وقد راج الاعتقاد بأنّ الإسكندر المقدوني هو الذي شيد هذا الحصن، وكان محاطًا بأسوار ضخمة مزوَّدة بأبراج، وانسحب سابور من فيرتا بدون نجاح. وذكر اليعقوبي في تاريخه - هوتسما، المجلد الأول، صفحة ٢٥٨ - كانت ديار آباد بعد اليمامة الحيرة، ومنازلهم الخورنق والسدير وبارق، ثم أجلاهم

---

٦ اللوحة الجبرية، رولنسن، كتابات مسمارية، شربدر، المكتبة المسمارية

كسرى من ديارهم فأنزلهم تكريت، مدينة قديمة على شط دجلة، ثم أخرجهم عن تكريت إلى بلاد الروم، وسرعان ما استعرب أهل تكريت "تكارتة" وهذا مما يسهل فهمه، إذ إنّ البلدة أصبحت مركز تسوُّق للبدو بين الفرات الأوسط ودجلة بعد اضمحلال دولة الحضر".

"انضمَّ أهل تكريت إلى اليعاقبة، فيروي ابن العبري في تاريخه الكنسي - ايّبلوس ولامي - المجلد الثاني العمودان ٦٧، ٨٥، أنّ برصوما بعد طرده من نصيبين في ٤٤٩ م سعى لإدخالهم في المذهب النسطوري ولكن محاولته باءت بالفشل. أصبحت تكريت مقرًّا للمطران أو ممثل بطريرك أنطاكية اليعقوبي، وكان تحت إدارته الشرق اليعقوبي بأسره. وبنى المطران أحوديمة - ٥٥٩، ٥٧٥م - ديرًا على مسافة غير بعيدة عن تكريت. أما اسيمانوس - المكتبة الشرقية، روما - فيتحدث عن ديرين بناهما المطران عند جوبكا وعين قيناء. وكان أوّل مطران في تكريت هو مروتا - ٦٢٩.م - وكانت تتبعه في البداية عشر أسقفيات لكن سرعان ما أصبحت اثنتي عشرة أسقفية".

"استولى المسلمون على تكريت عام ٦٣٧.م. فيروي البلاذري: "إنّ عتبة بن فرقد افتتح الطيرهان وتكريت وأمن أهل حصن تكريت على أنفسهم وأموالهم، وحدثني شيخ من أهل تكريت أنّه كان معهم كتاب أمان وشرط لهم". لكن الطبري يقول إنّ الخرشي خرقه حين

خرب قرى الموصل بهجوم بعد ذلك بوقت قصير. أما ابن العبري فيقول إنّ المطران مروتا ٦٢٩ - ٦٤٩، قد سلم قلعة تكريت إلى المسلمين، وبنى هذا المطران كاتدرائية دفن فيها. وبنى باريسو ٦٦٩ - ٦٨٣، في تكريت كنيسة الشهيدين المقدسين سيرجيوس وباخوس، وأصبحت فيما بعد الكاتدرائية الثانية، وأسّس قرب تكريت دير بيت عرباي[٧] - ولعل بيت عرباي تطابق الأربعين الحالية. ولرغبة المطران دنحا - بعد عام ٦٨٤ - في الاستقلال فإنّه عيّن مطارنة بدون موافقة البطريرك، ولهذا السبب عزل واحتجز في أحد الأديرة، ولم يعد إلاّ بعد وفاة البطريرك جوليان، فبنى كنيسة للقديس أوحوديمّة، التي أصبحت الكاتدرائية الثانية".

"وفي عام ٧٦٧.م، يكتب موسيل، بنى النساطرة لأنفسهم كنيسة صغيرة خارج الأسوار إلاّ أنّها قريبة من تكريت وبقوا فيها حتى نهاية القرن الثالث عشر. وفي عام ٨١٧ توفي البطريرك اليعقوبي كرياك في الموصل وحمل جثمانه في قارب إلى تكريت ودفن هناك في كنيسة الحصن الكبرى. وفي عام ٩٣٩.م. خرج الخليفة الراضي والقائد التركي بجكم من بغداد لملاقاة ناصر الدولة الذي كان يقترب من الموصل. وبقي الخليفة في تكريت، بينما لاقى جيشه ناصر الدولة قرب مستوطنة الكحيل، كما يروي إيليا النصيبي. ويروي المسعودي

---

[٧] المصدر: اسيمانوس، ابن العبري

في التنبيه: "إنّ أبا زكريا دنخا النصراني وكان متفلسفًا جرت بيني وبينه مناظرات ـــ يروي المسعودي ـــ كثيرة ببغداد وبمدينة تكريت في الكنيسة المعروفة بالخضراء في الثالوث وغيره". ويذكر المسعودي في المروج أنّ معظم اليعاقبة يقطنون في العراق في المنطقة المجاورة لتكريت، وأنّ هذه البلدة هي مقر مطرانهم". ويقول الأصطخري في المسالك: إنّ تكريت بلد على غربي دجلة أكثر أهلها نصارى. ويذكر ابن حوقل: إنّ تكريت على غربي دجلة، وأكثر أهلها نصارى، مطلّة على جبل عظيم شاهق، وعلى ظهر هذا الجبل منها الموضع المعروف بالقلعة وهي قديمة وتجمع سائر فرق النصارى، وبها من الأديرة القديمة التي تقارب عهد عيسى عليه السلام والحواريين".

"ويصف الشابشتي – مخطوطة برلين – دير مريوحنا: إنّه إلى جانب تكريت على دجلة، دير يوحنا، كبير وعامر، كثير الرهبان، على بابه صومعة عبدون الراهب، وإلى جانبه بناء يتزله المجتازون، فيقيم لهم الضيافة. يقع دير آخر يسمّى العجاج وفقًا للشابشتي، بين تكريت وهيت، عامر كثير الرهبان، وخارجه عين ماء تصبُّ إلى بركة هناك، وفي البركة سمك أسود، وهو عذب الطعم وحوله مزارع خضر تسقى من تلك العين".

"وفي عام ١٠١٧ هرب المطران أغناطيوس وأخذ معه أواني الكنيسة وزيناتها إلى بغداد حيث أشهر إسلامه حسب رواية إيليا

النصيبي وابن العبري. وفي عام ١٠٨٩ في زمن المطران يوحنا ١٠٧٥ - ١١٠٦، أمر والي تكريت بهدم كنيسة القديس سيرجيوس وباخوس الواقعة على التلّ الأعلى. كما انتهبت كنيسة القديس أحوديمّه وشُرِّد المسيحيون وهرب المطران إلى الموصل، كما يروي ابن العبري".

"عاد المطران ديونيسوس ١١١٢ - ١١٤٢ إلى تكريت وجمع النصارى ورمَّم الكنائس. ودفن في الكنيسة القديس جورج تحت مذبح برصوما الذي كان هو قد بناه حسب رواية العبري واسمانوس. بعد عام ١١٥٣ لم يعد المطران يقيم في تكريت. تناقص المسيحيون وازداد المسلمون، حسب ابن العبري. ويسجّل الإدريسي في نزهته - ترجمة جوبير التي اطلع عليها موسيل - أنّه كان قسم كبير من أهل تكريت مسيحيين".

"في أول حزيران ١١٨٢ زار تكريت الرحالة ابن جبير وقال في رحلته: إنّها مدينة كبيرة، كثيرة الأسواق والمساجد، أهلها أحسن أخلاقًا وقسطًا في الموازين من أهل بغداد. وهي من المدن العتيقة. في عام ١٢١٨ زارها المطران أغناطيوس وهي مقام أسلافه، لكي يرى المدينة التي سبق أنْ كانت عاصمة الشرق. فخرج الأهلون للقائه بابتهاج عظيم وهم يحملون الأناجيل والصلبان على رماحهم، وينشدون التراتيل السريانية والعربية. فأغاظ هذا الترحيب المسلمين

إغاظة شديدة، فألقوا المطران في السجن وفرضوا غرامة على أهل تكريت مقدارها عشرون ألف قطعة من الذهب. هرب المطران من تكريت إلى الخابور - قرقيسياء - وانتخب فيما بعد مطرانا لليعاقبة، كما يسجل ابن العبري واسيمانوس".

"ويروي المطران ابن العبري نفسه أنّه زار تكريت بنفسه في عام ١٢٧٧م. وحوالي سنة ١٣٦٥ اقترب المطران اثناس أثناء سفره إلى بغداد من تكريت. فخرج المسيحيون لملاقاته بابتهاج عظيم وحملوه إلى المدينة على كرسي المطران القديم. ويكتب ابن بطوطة في التحفة أنّ مدينة تكريت كبيرة وفسيحة الأرجاء، مليحة الأسواق، كثيرة المساجد، وأهلها موصوفون بحسن الأخلاق. ويلاحظ الدمشقي في نخبته أنّ تكريت تقع على تلّ مرتفع غربي الفرات. أمّا نهر الثرثار الذي يأخذ من نهر الهرماس ويصبُّ في دجلة فيجري في طرف المدينة. جاء ثيفنو - الرحلات، أمستردام،١٧٢٧ - إلى تكريت وقد حاول مرتين الدخول إلى المدينة، إلاّ أنّه لم يستطع تسلّق الصخور الشديدة الانحدار المؤدية إلى السور. كانت مدينة عظيمة لم يبق منها الآن سوى الخرائب. ووصف تافرنيه - الرحلات الستّ، باريس، ١٦٧٩ - مدينة تكريت: كان المسيحيون يعيشون على قرابة ربع ميل عن المدينة، حيث لا يزال يمكن مشاهدة خرائب كنيسة وبرج تدل على أنّها كانت بلا ريب بناية كبيرة الحجم".

سأل بلزاك وهو يحدق في الشمس كصقر هرم: "أين نحن الآن؟"
"نبحر في قلب الظلام".

ضحك بعمق وقال: "تدري؟ أوّل مرّة سمعت فيها هذا الكلام كانت في مقهى البيروتي في الكرخ على رأس الجسر القديم وكان معروفًا بمقهى التجّار. سأل صاحب المقهى شخصًا جالسًا وذاهلاً قائلاً: "أين أنت الآن؟ فردَّ الآخر: أبحر في قلب الظلام. فيما بعد عرفت أنّه الشاعر الرصافي".

" هل يعجبك اسم بلزاك؟ نغيره إذا سئمت منه؟"

" الكاولي يحتقر الأسماء ويرتجل في كل موقف ولحظة اسمًا. نحن جميعا نحمل اسمًا واحدًا: كاولي". تابع: "لم تقل لي أين نحن الآن؟".

"في الطريق إلى العاصمة الآشورية".

"تقصد السحاجي؟".

ضحكتُ: "لا، الشرقاط".

يبدو أنَّ الطفلين رغدان وصقر لا وجود لهما في الشاحنة كما لو أن الأمر خطأ في السرد ولكنه خطأ أكبر: أنَّهما في شاحنة مغلقة على طفولة مغلقة، وكان يمكن تركهما يلعبان في الحقول في محطات الاستراحة لسدِّ فجوات الحكي ولكنه سيكون قادمًا من خارج بنية النص. إنَّهما خائفان من عالم ــ خارج الشاحنة العدائي بما في ذلك عالم الأطفال. لا يمكن تفسير الأمر على أنَّه تجاهل لعالم خارج الشاحنة ولكنَّه نوع من الارتياب والاحتقار في آن واحد. هو يشبه

موقف حسين مردان السائق الذي سألته مرة واحدة عن اسمه الحقيقي، فردَّ عليَّ بلهجة لا تنمُّ عن سخرية ولا عن فظاظة بل هي خليط من التفاهة غير المحقرة واللامبالاة، قائلا: "لا أهميّة لذلك" وربما يعني أحد أمرين: إمّا أنَّ الاسم لا قيمة له في عالم من التجاهل والإنكار وعلى أرض تحولت إلى منفى، وإمّا أنَّ الاسم قد يشكِّل يومًا مشكلة حقيقية لي وهو أمر يحدث كثيرا حيث يتحول اسم شخص عابر في لحظة ما إلى قضيّة ملتبسة وقد يكون السبب نفسه الذي جعله لم يسألني السؤال نفسه أبدًا. لعبة التستّر والازدراء مشتركة من دون لغة لأنَّ اللغة صارت شركاً ومنفى.

كان يمكن مثلا لملء فراغات السرد وضع بياتريس أو فرح حوم أو مديحة صالح أو نوال جياد في لحظة عري والعثور على ذلك صدفة في دغل أو خلف صخرة، ولكنَّ ذلك يكسر شفافية السرد الذي كالحبِّ والحماقة والألم والطموح يكون ملهمًا كالنشوة والشهوة ومنظر طبيعي لغروب رمّاني متوهّج على نهر في المساء. المشاعر السلبيّة تكون ملهمة أحيانًا كما يمكن أن تكون محبطة. ولكن من يدري فقد يحدث في مكان ما في لحظة قادمة أن يسطع جسد بياتريس الغجري الأسمر كقوس قزح على حافة بحيرة منعزلة.

جسد بياتريس المتوتر والصلب كحبّات الندى على غصن في فجر صيفي يذكرني بفريني الاثنية التي عمل لها النحّات براكستيليز تمثال

افروديت وكانت محجَّبة في الأحوال العادية لكنَّها في الأعياد تتعرّى علنًا من ثيابها وتسبح في البحر وأصبحت ثريّة من الدعارة حتى أنّها أرادت بناء أسوار طيبة وحفر اسمها على الأسوار - القرن الرابع قبل الميلاد ـــ لكنهم رفضوا واتهمت بالإلحاد والخروج على التقاليد وقدّمت إلى المحكمة وكانوا على وشك الحكم عليها بالموت لولا محاميها البارع وخطيب أثينا هيبريدس، المتيَّم بها، وفي آخر لحظة، وكانوا على وشك اتخاذ قرار الموت، رفع ثوبها من الأعلى إلى الأسفل أمام القضاة، فاندفع لهدا فريني إلى الأمام كشعاعين من البلور وسطع جسدها الساحر مما أذهل هيئة المحكمة وحكمت، حالاً، ببراءتها وكان الفيلسوف ديجين الفقير هو الزبون الوحيد الذي لا تتقاضى منه نقودًا وكما تقول: "أحبُّ أن يجثم الفلاسفة تحت قدمي".

لم لا؟ جسد فريني أو افروديت إلهة الجمال الإغريقية انتصر على القانون ونصوص الفلاسفة. جسد - نص - يلغي القانون في لحظة شروقه الباهر ويحذف قرار الموت وينسف التقاليد الاثنية العريقة.

"أين نحن الآن؟" سأل بلزاك العجوز.

قلت: "في طريق جوليان".

"ماذا؟"

"في طريق الامبراطور الروماني جوليان"

الفصل السادس

طريق جوليان إلى بابل

(نحن نعيش في زمن سحّاج، زمن تقشير)
ـــ حوم أو بلزاك الكاولي.

الامبراطور الروماني الوثني جوليان حكم في الفترة بين: ٣٦١ – ٣٦٣، وكان قد جاء بعد الامبراطور قنسطنطيوس – ابن عمه – وألغى المسيحية واعترف بالوثنيَّة نتيجة ما وجده من تناقض بين التعاليم وبين رجال الدين، ولكي يتخلّص منه الامبراطور نفاه أوّل الأمر ثم استدعاه وحاول إرساله إلى بابل لقتال الفرس للتخلّص منه لكنَّه كشف المكيدة، وبعد موت قنسطنطيوس توّج على العرش بعد صراع عائلي طويل.

محنة جوليان عميقة: العدو الذي سيذهب لحربه ليس العدوَّ الحقيقي المتروك خلفه في القصور الرومانية. لكنَّ جوليان جهَّز حملة بنفسه. قطع الطرق الوعرة هابطًا إلى بابل عبر الخابور نحو السهول البابلية. يحاول موسيل بناء حملة جوليان على بابل بالاستناد إلى ثلاثة

شهود عيان:

الأوّل ماكنوس.

الثاني بوتيكيانوس.

لكنّه لا يعلم عن تقريرهما سوى شذرات نشرت في "التاريخ الإغريقي، باريس ١٨٥١"، أو في "التاريخ الروماني" لزوسيموس معاصر الامبراطور زينو، لكنّه يعتمد شهادة أميانوس مارسلّينوس مرافق جوليان في الحملة الذي وصل كاملاً. أمّا شاحنة بلزاك فهي تروي التاريخ المضاد وليس المحكي من قبل "حكاية السلطة" عبر العصور. رواية الشاحنة هي "سلطة الحكاية" هي رواية الهامشي والمنبوذ والفقير والملغي والمحذوف من الحياة والحكي والمسرّة، أي الحكاية التي لم تُرْوَ، الحكاية المخفيّة، فليس من المعقول أن نحرم من حقّ الحياة ومن حقّ روايتها؟ التاريخ يرويه الهامشيون وليست تلك الحكايات المشوَّهة المرويَّة من قبل سلطة ما، سواء سلطة حاكمة، أو بنية معايير، أو سلطة شروط الرواية، أو سلطة اللغة، أو سلطة الزخرفة.

شهود رواية عائلة بلزاك هم:

أوّلاً: حوم أو بلزاك الكاولي.

ثانيًا: زهران، صحافي، معيدي، سمل شيوعي.

الكاولي يروي وأنا أسمع أو بالعكس. نتقاسم السرد والشاحنة والطريق والذل والأمل. هذه أوّل مرّة يروي كاولي ومعيدي وكردي وراقصات وطبال وعازف ربابة تاريخ العراق بعد أن رواه المؤرخ

والجنرال والدكتاتور والخائن والمقاول والمرتزق والمحتل والسائح والرحّال والجلاد. آن للضحية أن تحكي الوجه الآخر من الحكاية.

ثالثًا: ثلاث مغنّيات وراقصات لتخفيف ضراوة الحكي في الاستراحات.

رابعًا: فالح حوم: عازف ربابة وهو يصغي لأنّنا لا نتكلّم لجمهور غائب – هذا يحدث فقط لدى سيّد الواقع المتخيّل، سيد قلعة برتو الجديد.

خامسًا: مزاهر حوم: ضارب زنجاري وأحد الشهود.

سادسًا: حسين مردان أو كوران السائق: كردي مطارد من السلطة بتهمة العمل المسلّح، ومطارد من البيشمركة بتهمة العمل مع السلطة. لا ندري متى يفتح قارورة الحكي عن سنوات الجبل وأسراره وقد يحدث هذا في أية لحظة لأنّ رواية كوران لم تُرْوَ بعد. إذا تأخّر كوران في الحكي حتى الآن، فلا يتعلّق السبب في كونه لا يريد أو يرغب، بل في البناء اللغوي الروائي المعقّد لهذه الرواية.

سابعًا: طفلان شهود المستقبل.

○

في الملحق الرابع من كتابه "الفرات الأوسط" وتحت عنوان: زحف الامبراطور جوليان في عام ٣٦٣ كتب موسيل: "استنادًا إلى أميانوس مارسلّينوس فقد وصل جوليان في ٢٦ آذار عام ٣٦٣ مع

جيشه إلى نهر بلياس عند المركز التجاري كالينيكوس المحصن تحصينًا قويًا. ومع فجر اليوم التالي انطلق بمحاذاة الضفة اليسرى للفرات. وفي إحدى محطات التوقّف قدّم رؤساء عرب فروض الطاعة له وقدّموا له تاجًا ذهبيًا وعرضوا عليه قطعات احتياطية فقبلها بسرور. وبينما كان يتفاوض مع الرؤساء، وصل أسطول يتألّف من ألف قارب شحن وخمسين قاربًا لنقل الجنود وعدد مماثل من العوّامات".

"وبمصاحبة القوات البدوية أسرع في السير ودخل في اليوم الأول من نيسان قرقيسيوم - قرقيسيا - وهي حصن متين البناء يحيط أسواره نهر أبورا - الخابور - والفرات ممّا جعل الفسحة الداخلية تبدو وكأنها جزيرة. لبث جوليان في قرقيسيا إلى أن عبر الجيش وكلّ الذين رافقوه على الجسر العائم على نهر أبورا. ثم بعد أن عبر النهر بنفسه أمر بإزاحة الجسر ليحول دون فرار الجند".

"من الخابور وصلوا إلى مكان يسمّى زيثا، ويعني شجرة الزيتون حيث قام نصب تذكاري للامبراطور كورديان يمكن رؤيته من بعيد. أسرع نحو بلدة دورا المهجورة. وفي طريقه اصطاد جنوده أسدًا كبيرًا. بعد أن ساروا بمحاذاة الفرات وصلوا بلدة دورا. وهناك شاهدوا عدة قطعان من الغزلان. وبعد أربع مسيرات سهلة أرسل الامبراطور في المساء قوارب عليها ألف رجل مسلّح بقيادة لوكليان للاستيلاء على حصن انثا الواقع، شأنه شأن العديد من الحصون،

على جزيرة بالفرات. فقامت القوارب بهجوم ليلي ولكن دون جدوى. وعند الفجر التمس الأهلون الرحمة وكانوا يسوقون أمامهم ثورًا مزيَّنًا بإكليل كان رمزًا للرغبة في السلام. إلاّ أنَّ الحصن احترق بعدئذ، وأُرسل الأهلون مع جميع ممتلكاتهم إلى بلدة خالكيس السورية."

"في اليوم التالي هبَّت عاصفة قوية جدًّا مزّقت خياما كثيرة، كما هدم النهر الغاضب السدّ الذي كانت تحتمي به القوارب وغرق بعضها وكان محملاً بالحبوب. بعد أن تزوَّد الجيش بالطعام أمر الامبراطور بإشعال النار بالحبوب الفائضة وبجميع الأكواخ. عندما عبر جنديٌّ سكران إلى الجانب الآخر للنهر ألقَوا القبض عليه وقتلوه أمام أعين رفاقه. وصلوا حصن ثيلوثا، لم يحاولوا الاستيلاء على الحصن بل اكتفوا بمجرد الطلب من الأهلين الاستسلام، فكان جواب الأهلين بأنّهم لا ينضمون إلى الرومان إلاّ إذا انتصروا واستولوا على المملكة وثمة حصن آخر قدَّم رفضًا مشابهًا. وبعد زحف وصلوا إلى مكان يدعى براخملخا حيث عبروا النهر وهاجموا بلدة دياكيرا على بعد أميال والتي كان أهلها قد هجروها. وهناك رأوا هيكلاً مبنيًّا في حصن على تلٍّ عالٍ. وبعد أن أحرقوا المدينة وقتلوا عددًا قليلاً من النساء ساروا واحتلوا بلدة أوزوكاردانا التي هرب سكانها المذعورون. هناك عرضوا كرسيَّ القضاء الخاص بالامبراطور تراجان.

وبعد الاستراحة مدة يومين تقدَّموا إلى قرية ماكبراكتا وجدوا فيها تحصينات مهدَّمة وقيل إنَّها كانت تحمي بلاد آشور".

"عند هذا الموضع ينقسم الفرات: فرع من النهر يجري إلى داخل بلاد بابل، وأما الفرع الآخر ويدعى نارملخا ويعني نهر الملك فيجري نحو طيسفون. عبر الجنود الجسور التي شيَّدها الرومان وسرعان ما وصلوا إلى مدينة بيريسابوراس الكبيرة والمكتظة بالسكان وكانت محصَّنة. طاف الامبراطور حول المدينة راكبا وفحص موقعها عن كثب بهدف ترويع الناس من حصار قادم، وحاول بالوعيد حملهم على الخضوع. واذ لم يُجْدِه ذلك نفعًا، أحاط المدينة بثلاث حلقات من المسلحين ورماها بالقذائف ليل نهار. استسلم المدافعون. وجد الرومان في القلعة كميات كبيرة من الأسلحة والمؤن وأخذوا كلّ ما احتاجوا إليه وأحرقوا الباقي والمدينة أيضًا".

"وبعد استيلاء جوليان على ميوزاملخا بدأ هو وجيشه بالعبور على جسور عائمة للوصول إلى خط مزدوج من التحصينات حيث حاول ابن الملك الفارسي مقاومتهم بجيش من طيسفون إلاّ أنَّ الفرس ولّوا الأدبار دون قتال. واصلوا سيرهم ووصلوا إلى قلعة ملكية مشيَّدة على الطراز الرومان، ومن ثمَّ وصلوا منطقة ملكية محظورة لصيد الحيوانات وكانت على شكل دائري تغطّي مساحة شاسعة مليئة بالحيوانات الوحشية".

"وصل الجيش إلى مجرى نهر نارملخا وكان في الأصل قناة وكان الفرس قد ملأوها بالحجارة خشية هجوم مُعادٍ. وبأمر جوليان تمّ تطهير القناة ودخلت القوارب دجلة. بعد ذلك عبر الجيش القناة على جسور عائمة. تقدَّم الجيش الآن على الضفة اليسرى لدجلة وهو يحارب على الطريق".

٥

" نحن نحارب على الطريق".

قال بلزاك العجوز ذلك لسبب غير مفهوم كما لو كان يحدِّث نفسه وحاولت تجاهل الأمر لكي يظلّ في عالمه الداخلي وهو الشيء الوحيد الباقي له، إلاّ أنّني كسرت الصمت بسؤال تقليدي في مثل هذه الحالة: "نحارب من؟".

يبدو أنّه بوغت بالسؤال وحضوري قربه فليس من عادة الغجري أنْ يحلم بصوت عالٍ والأمر معنا سيّان في الحقيقة كما في التخيُّل والحلم. أجاب مجفلاً لا من طبيعة السؤال ولكن من خروج تصوّراتِه السريَّة المدفونة في قيعان عميقة من الطين والصلصال والوحل والأدغال والكهوف الأسطورية: "كنت أريد أنْ أقول إنّ هذه العتمة مرهقة".

تذكرت قول بورخيس عن العمى: "شبه الظلّ هذا بطيء ولا يسبِّب أيَّ ألم. إنّه يتزلق فوق سفح ناعم، ويبدو كالأزل". لم يكن ذلك

جواب بلزاك الحقيقي ولكن ما الحاجة إلى جواب حقيقي؟ قلت من أجل أن أجعله يشعر بنجاح لعبته: "ولكن ضوء النهار قويٌّ جدا ونحن في ظهيرة آب؟" كان من الواضح ومن غير إدراك أنَّ هذا السؤال تشكيكي وليس استفسارًا عن أمر. قال وهو يضع يديه حول عينيه كمن ينظر إلى شمس ساطعة" نعم، نعم، ولكن العتمة قوية مع ذلك".

عتمة القلب؟ عتمة طريق جوليان؟ عتمة الحصون الآشورية المتداعية؟ عتمة حصان عبّاس السبع؟ كلب مس بيل؟ مدافع فاسكو دا كاما؟ سرديّات موسيل؟ غراميات لورانس؟ عتمة قلعة برتو وقصر العاشق الجديد؟ عتمة النهار العراقي الطويل؟ عتمة الملصقات الفجّة على طول الطريق من أجل محاصرة الإدراك الحسّي للإنسان وغلق حواسه في كل مكان لكي يشعر أنَّ الواقع الصّوري المتخيَّل عبر الإعلانات والرموز والصور والشعارات هو الواقع الحقيقي والوحيد أو ما يسميه علماء الاجتماع "الترويض الناعم"؟ عتمة مصير امبراطور في الطريق إلى حرب في بابل لا لكي ينتصر بل لكي يموت؟ أم عتمة المدن القادمة؟

بلزاك العجوز لا يتحدَّث عن الماضي إلاّ لمتعة السرد والصداقة والشاي والتبغ وعند النسيان أيضًا كأنَّه لكي يتذكَّر يجب أن ينسى. الحياة عنده في المقبل. تعوّد في الماضي على حرب مستمرة ومفتوحة في الطرقات: فحروب الغجري ليست في الماضي بل في المستقبل وعتمة بلزاك منتظرة في المنعطفات القادمة.

"قلت لك مرّة نحن نعيش في زمن سحّاجي وسألتني عن معناه فلم أجبك. كل ما أفهمه أنّ السحّاج تعني التقشير. نحن نعيش في زمن سحّاج، زمن قسوة"، قال ذلك وهو يتأمّل النهار الفارّ.

حين عدت فيما بعد إلى قواميس اللغة وجدت أنّ بلزاك العجوز لم يكن بعيدًا عن المعنى الحقيقي: (السحّاج كثير السحج، اي التقشير. يقال زمن سحّاج أي شديد يقشّر كلّ شيء. قال أبو عارم الكلابي في وصف نخلة: ما ضرها مسّ زمان سحّاج. وقال أبو ذؤيب: وجاءها بعد الكلال كأنه ــ من الأين محراس أقذ سحيج).

أضاف: "عشت في السحاجي ثلاث سنوات ذقت فيها المرّ. يوجد فيه أكثر من ٦٦ منزلاً ويسكنها ما يقارب ٧٤ عائلة والمجموع ٤٠٣ وفيها أكثر من ٤٩ مطربة ومثل هذا العدد من المطربين وحصلنا سنة ١٩٧٣ على موافقة للسكن في أرض لا تصلح للزراعة في ناحية حميدات بين تلعفر والموصل وتُرك لنا الخيار في البناء لذلك تحوَّل إلى سكن مضطرب لا تكون الشوارع فيه محددة بل متداخلة كذلك البيوت حيث تندمج الخيم مع المنازل والكباري والماء يجلب بواسطة (تانكر) مقابل مال والحصول عليه صعب في الصيف أو في الشتاء ولا مدارس للاطفال وعدُّهم أكثر من مئة، أي ــ يضحك ــ بعدد المطربات والمطربين، وشرطة تلعفر تداهم المكان كلّما اختفت

امرأة أو للابتزاز. لم تنفع عرائض شيخ البو عبد حامد الهاشم. هل فهمت الآن المعنى؟".[٨]

أضاف مقهقها: "تخيل لو أنّ كل هؤلاء يغنّون دفعة واحدة".

"وطريق السحّاجي نينوى؟"

لم يجب ربما لأنّ السؤال بدا له بلا معنى وغرق في تأمل أو نوم أو في حلم يقظة أو ذكرى منتظرة على طريق خليفان. كنت من جانبي أحاول تركيب صورة ذهنية متخيلة للطريق القادم من باب التسلية وربما لتركيب فوضى زمن سحّاج كل شيء فيه قابل للتقشير. وتساءلت بيني وبين نفسي: ماذا يستطيع أن يفعل شيخ كاولية البو عبد بفرقة موسيقية إذا كان الملك آشور بانيبال آخر ملك آشوري قد مرَّ من هذا الطريق بما تبقى من عربات ملكية تقودها الأسود الآشورية، مهزومًا، أمام جحافل قلعة برتو وقذف نفسه، منتحرًا، في حرائق قصره المشتعل لكي لا يعاني من عار الهزيمة. هل يكرّر الزمن السحّاج، زمن التقشير، نفسه مرة أخرى على شكل مهزلة؟

يحاول موسيل إعادة تركيب طريق جوليان كما رواه اميانوس مارسلينوس وسجل زوسيموس المكمّل لأنّه يرى إنّهما يضيفان كثيرًا

---

[٨] كتاب: الفجر والقرج

إلى معرفتنا للطوبوغرافية المحلية لبلاد الرافدين. إعادة التركيب والبناء والسرد هي في الوقت نفسه اكتشاف لأنَّ الحقائق لا توجد مرمية في الطرقات بل تُكتشف في سياق بناء علاقات. إنَّ الحقيقة خلق كالحكاية والأمل والمتعة.

لكن لماذا هذا التوازي بين طريقنا إلى السحاجي المستوطنة الغجرية ثم بلدة ديانا الجبلية وبين طريق جوليان، الرمز والدلالة؟ لماذا، مثلا، لا يجري الحديث عن نزلاء "الغرف" المجاورة في الشاحنة، الغرف المغلقة بأبواب شكلية تمنع النظر فقط ويمكن لتأوُّهٍ جنسي أو عاطفي أو جسدي صادر عن ألم أن يكون مسموعا؟ كيف تنام بياتريس المتوثبة الصدر كنصب مرمري لأفروديت؟ كيف يعيش فالح حوم الأب ومديحة صالح زوجته حياتهما الجنسية في الشاحنة على مقربة منّا ومن فرح؟ والأمر نفسه مع مزاهر حوم ونوال جياد والطفلين؟ لماذا لا يكون إعادة بناء علاقات هذه العائلة بالطريقة نفسها التي تتم إعادة تركيب طريق الامبراطور جوليان؟ وأيهما أصعب في إعادة البناء: طريق جوليان الموغل في الماضي أم حياة أسرة تعيش وتنام وتحلم في شاحنة منطلقة الآن؟ ما هو الحدُّ الفاصل بين قلعة العاشق مثلا وبين الخيمة؟ بين طريق جوليان وبين قلعة برتو الجديدة؟ بين ملصقات الطريق وبين جسور الرومان على الأنهار؟ بين محنة امبراطور في الطريق إلى ساحة حرب ومصير مجهول وبين محنة

رجل أعزل قُذف على الطريقة الرومانية في المسارح إلى أسود ضارية وهو عار من السلاح والأظافر؟

عندما يصل الجيش الروماني إلى أسوار بابل هل تبدأ حرب جوليان الحقيقية أم تنتهي؟ عندما نصل إلى ديانا، هل تبدأ حرب أخرى أم تنتهي؟ جوليان في أعماقه، كما سيّد قلعة برتو الجديد، كما مس بيل، وفاسكو دا كاما، ولورانس، وموسيل، هؤلاء في أعماقهم أكثر ضعفًا من بلزاك العجوز وأمثاله ولكن القوَّة تموّه الضعف. وإلا: كيف ماتت مس بيل؟ أقراص نوم أو مهدئ زائدة؟ لورانس على دراجة في درب ريفي، والامبراطور جوليان نفسه قُتل بسهم طائش وانهارت دفعة واحدة الوثنية. لماذا دائما تنهار (الوثنيات) من سهم طائش؟ كيف يتحوَّل الناس، الجيران، والأصدقاء، بين لحظة وأخرى إلى قتلة يمزقون لحم بعضهم، فجأة؟ هل يحدث هذا (فجأة) فعلاً؟ أم هو الحقد المعتَّق؟ يخيل إليّ أنَّ مصائر البشر مترابطة كتناصّ الحكايات وكلُّ شخص يصنع مصير شخصٍ آخر كالنصوص. مثلاً: إنَّ بعض المدن التي مرَّ بمحاذاتها أو فيها أو دمَّرها جوليان تشكِّل مخيلتي. أي أنَّه صنع لي مخيَّلة من الخراب كما سيفعل كثيرون بعده. ليست ذاكرة خراب فحسب بل هناك ذاكرة مشرقة ومليئة بالجمال حتى لو استدعيت في سياق صور غزو جوليان أو غيره.

حين أقول نحن في طريق جوليان فلأننا كذلك، ولكنَّه أكثر وحشية وظلامية وقسوة من طريقه: جوليان محارب ويمتلك جيشًا قويًّا ونحن نتشرَّد على الطرقات نفسها أو جوارها أو قربها أو بمحاذاتها منفيين كما كان جوليان نفسه منفيًّا في بلاد يجهلها تماما. هو قتل بسهم طائش - كلمة طائش صبيانية وهي من الجملة الجاهزة لبعض المؤرخين - وقد يكون مصيرنا مشابهًا أيضًا: سواء كان هذا السهم طائشًا أو لا، سواء كان السهم سجنًا أو منفى، هاوية أو حريقًا، نوبة جسد أو نوبة توق أو عزاء أو حنين.

حنين إلى ماذا؟ الحنين يعني التوق. التوق إلى ماذا؟ بلزاك العجوز وعائلته يتوقون إلى الوصول إلى ديانا. أي أنَّ التوق هنا في الأمام لا في الخلف. التوق يعني ذكرى. الذكرى في الماضي. هوميروس عذَّبه التوق إلى إيثاكا. لكنَّ إيثاكا التي عرفها وأحبَّها لأنَّها أحبَّته. هل تاق جوليان إلى روما؟ أم إلى العرش؟ هل يتوق بلزاك العجوز الآن إلى حيِّ الطرب والفوّار والكمالية والصحراء؟ أم أنَّ توقه في الأمام؟

قلت: "هل نصمت أم نواصل الحكي؟"
"كما قلت بنفسك لا يختلف الأمر عندي"، ردَّ بلزاك شبه النائم.

الروائي النمساوي روبرت موسيل شقيق الرحالة الويس موسيل كتب روايته الشهيرة (رجل بلا صفات) عن رجل حائر في البحث

عن معنى وجوده وهي بشكل ما تعكس تفسّخ الامبراطورية النمساوية المجريَّة، وفي هذه الرواية ليس ما يحدث هو المهم بل ما لم يحدث أي في أحلام أولريش المثالية في مواجهة واقع عدواني. روبرت أقرب إليّ من شقيقه الويس. السرد الأصيل جزء جوهري من الأخلاق.

تيهُ روبرت موسيل وتشرّدُه في النصوص هو تيهُ وتشرّد البحث عن عالم أكثر نقاوة وليس مهما أن يعثر عليه ولكن الغاية في البحث والسؤال والقلق لا في العثور. إنَّ ما لم يحدث الآن قد يحدث غدًا أو في مكان آخر وبهذا المعنى روبرت جوّال وتشرّدي ومغامر وكشّاف وحالم وباحث عن أناه عكس الشقيق الويس الذي يبحث عن حقائق التاريخ تحت قدميه وفي الحفريات والخرائب وآثار الجنود والقلاع: لكنَّه سيكتشف في النهاية بعد تفسُّخ الامبراطورية النمساوية أنَّ كلَّ ما بحث عنه في تلك السهول والصحارى تركه خلفه في غرفة الشقيق روبرت موسيل الذي لم تتفسَّخ إمبراطورية مخيَّلته، وكما حدث مع ذلك الرسام في"خاتمة" قصص بورخيس "الصانع" ــ (يوكل رجل لنفسه مهمّة رسم العالم. وخلال السنين يعمر الفضاء بصور الأقاليم والممالك والجبال والبحار والسفن والجزر والأسماك والغرف والأدوات والنجوم والخيول والناس. قبل موته بقليل، يكتشف أنّ ما ترسمه تلك المتاهة الطويلة من خطوط هي صورة وجهه".

إنّ مصير تورليز في رواية روبرت (الصبي تورليز) الشاهد على اغتصاب تلميذ يهمُّ أكثر من اهتمام الويس موسيل بمصير الامبراطور جوليان في حملة بابل: هو الفارق بين الروائي والباحث والمؤرخ، بين حلم البحث عن عالم أجمل وأصفى وأهى في شاحنة غجر وبين البحث في الأنقاض والخرائب والقلاع المتداعية. حين تنهار أحلام الويس موسيل بانهيار الامبراطورية النمساوية المجرية، يسطع عالم الشقيق الروائي روبرت موسيل كفنار على ساحل بحري في غسق مسائي رمّاني متوهج.

"هل نواصل الحكي؟" سألتُ بلزاك.

"وماذا نفعل غير ذلك؟".

o

كتب الويس موسيل وهو يحاول تركيب طريق جوليان من زاوية أخرى كما أحاول أنا الآن تركيب رحلتنا في الشاحنة: "سار الجيش الروماني مع الامبراطور جوليان من كالينيكوس بحذاء الضفة اليسرى لنهر الفرات إلى الثّغر الحدودي المنيع قرقيسيا. ومن المستحيل معرفة عدد المسيرات اللازمة للوصول إلى هناك لأنّنا لا نعلم كم استغرق الامبراطور في التفاوض مع رؤساء البدو، كما لا نعلم كم طال انتظاره للقوارب. استنادًا إلى زوسيموس، يبدو وكأنّ غالبية الجيش تبع في أعقاب الجناحين المتقدمين. ولقد وقع الاختيار على الجنود

الخيَّالة للجناح الأيسر لأنَّه يتوقَّع أنْ يقوم خيَّالة العدو بهجمات مباغتة من ذلك الجانب".[٩]

"تدعى خرائب دورا على الضفة اليسرى للفرات الآن بالجعابي وتبعد خمسين كيلومترا من قرقيسيا "البسيرا" ولو انطلقت السفن الرومانية من مرفأ قرب خربة أرتاجا في المساء حيث توجد قوارب الفرات، لاستطاعوا الوصول إلى قلعة أنثا "عانة/عنة الحالية" قبل الساعة الخامسة صباحًا. يذكر زوسيموس أنَّ الرومان أتوا بأربع مسيرات من دورا إلى فاثوماس التي تقع مقابل حصن أنثا وهذا يدل على أنَّه نسخ بصورة غير صحيحة. المسافة من الجعابي "دورا" إلى الموضع المقابل لعانة هي ١٣٠ كيلومترا، ثلثاها تماما كانت تخترق منطقة صخرية وعرة حيث ليس بمقدور أي جيش مواصلة السير بمعدل ٣٢،٥ كيلومترا في الساعة وهي السرعة التي كان من الضروري السير بها لو قطعت هذه المسافة في أربع مسيرات. إنّ تثبيت موضع فاثوماس ليس بالأمر اليسير. إلاّ أنّنا لو تأملنا في نص العبارة التي تضع فاثوماس مقابل جزيرة عانة الصغيرة، لوجب إذن مطابقتها مع بلدة راوة الحالية".

---

[٩] كتاب الفرات الأوسط الويس موسيل، يجري التناص معه مرات في الرواية

"من الواضح أنَّ سكّان حصن أنثا الجزري كانوا متواطئين مع الرومان واستسلموا بدون مقاومة تذكر. تحطمت قرب أنثا بعض القوارب الرومانية لأنَّ النهر الهائج أطاح بالسدِّ، وربما كان السدُّ جدارًا حجريًّا متصلاً بقنطرة مثبت على نهايتها الخارجية ناعور. هذه الجدران والسدود منتشرة في المنطقة المجاورة لعانة. أمَّا العدو فكان يراقبهم من الضفَّة اليمنى فقتلوا جنديًّا كان قد وقع في أسرهم".

"إلى الجنوب الشرقي من أنثا شاهد الامبراطور معقلاً جزريًّا يدعى ثلوثا وكان هذا الحصن بدرجة من المناعة بحيث لم يجرؤ على محاصرته. ولا يمكن أن يكون هذا الثلوثا سوى جزيرة تلبيس الصخرية وتقع على بعد ١٤ كيلومترا جنوب شرقي عانة. ومن ثلوثا وصل الجيش الروماني إلى حصن اخياخالا المحاط بالنهر ما جعل الاقتراب منه صعبًا للغاية، وفي إمكاننا الافتراض أنَّ هذه البلدة تقع على الضفة اليمنى، ويفصلها عن اليابسة قناة ضيِّقة أو فرع من الفرات، ويتفق هذا الوصف مع بلدة حديثة الحالية التي تنفصل عن اليابسة بخندق اصطناعي يملأه ماء الفرات. إنَّ اسم حديثة – أي الجديدة – هي تسمية متأخرة. ولعله من أخياخالا نشأ الاسم المحلي. ومن أخياخالا – حديثة – وصل الجيش في اليوم التالي إلى حصن صغير مهجور وأحرقوه".

"ومن هنا زحف الجيش في يومين ووصل إلى مخاضة براكسملخا التي تبعد سبعة أميال عن بلدة دياقيرا. وكانت دياقيرا – من قبر،

وتعني من يعطي قيرا – التسمية القديمة لبلدة هيت، وعلى بعد عشرة كيلومترات من هيت تقع خرائب العويرا على الضفة اليسرى ومنها تؤدي مخاضة الفليوي إلى الضفة اليمنى. ولعل هذا يبرّر قيامنا بتطابق عويرا مع براكسملخا، وربما تكون كلمة براكس تحريفًا لجذر الكلمة العربية فرض أو مخاضة النهر. ومن هنا فإنّ براكسملخا تعني: المخاضة الملكية. وكانت بلدة هيت – معطاة القير – دياقيرا تقع على تلين. وبعد أن دمَّر الجيش دياقيرا استمر في زحفه بحذاء الضفة اليسرى".

"استطاع الجنود الذين أرسلهم جوليان إلى الضفة الجنوبية – قرب خرائب الأشهابي الحالية – الخوض دون أن ينتبه اليهم أحد ومداهمة الفرس من وراء الأكمات الواطئة. بعد هذا عبر الرومان وحاصروا حصن بريسابوراس – فيروزسابور – أي الأنبار في يومنا هذا واستولوا عليه في يومين. ومن بريسابوراس – الاسم القديم للأنبار – سار جوليان مسافة أربعة عشر ميلاً ووصل إلى موضع كان من الضروري فيه اجتياز مستنقعات طبيعية وأخرى مغمورة اصطناعيًا، وبين هذه، استنادا إلى زوسيموس، تقع بلدة فيسينيا، المحاطة بخندق مائي عميق. إنّ مسافة أربعة عشر ميلاً من الأنبار – بريسابوراس – توصلنا إلى مدخل قناة دفّار الحالية. وربما كانت فيسيتيا متطابقة مع خربة عقر النعيلي".

"إنَّ الجيش استمر في سيره على ضفّة الفرات اليسرى، مارًا بجزر متعدّدة، حتى جاء أخيرًا إلى منطقة كاد النهر العظيم وإلى بلدة بثرا الباقية حتى يومنا هذا، ويمكن تحديد موضع بثرا التي ذكرها زوسيموس بجانب ضريح إبراهيم الخليل وعلى الجانب الشمالي من هذه الخرائب تفرعت قناة نار ملخا القديمة من الضفة اليسرى للفرات وكذلك تشعبت قناة العلقمي، المعروفة بمارساريس في الأزمنة القديمة".

"غادر الجيش الروماني نهر الفرات بعد بثرا مباشرة، ومن المحتمل ان السفن ابحرت على نارملخا وان الجيش تقدم بحذاء ضفته اليمنى، وكانت المسافة من بثرا الى دجلة عند طيسفون ثلاثة وأربعين كيلومترا. سار الجيش في الاتجاه الشرقي حتى حصن مايوزاملخا، وحسب زوسيموس، فإنه يقع بجانب بلدة بيسوخيس وتعني مايوزاملخا حصن الملك أو الحصن الملكي. بعد مغادرة الرومان المنطقة واصلوا سيرهم في اتجاه طيسفون مارين ببناية فخمة على الطراز الروماني ثم اخترقوا منطقة محظورة لحماية وصيد الحيوانات تعود الى ملوك فارس".

"إنَّ منطقة الصيد هذه تتطابق مع المتنزه الذي ذكره زينوفون – في كتابه أناباسس، أي الصعود – والواقع على قناة كبيرة بالقرب من بلدة سيتاس. باجتياز الرومان منطقة الصيد ضربوا خيامهم قرب بلدة ذات حصن عال لم يذكر أميانوس اسمه. واستنادا إلى زوسيموس كان يدعى ميّاس سباثا وكان يبعد ستة كيلو مترات من زوخامة

وهي جزء من مدينة سلوقية المهدَّمة. وبعد مقاومة عنيفة تمَّ الاستيلاء على حصن سباثا، وهي خربة المنيّر الحالية. وتنفيذًا لأمر جوليان تمّت إزاحة العائق الصخري وتدفّق الماء من نهر الملك ما مكّن القوارب الرومانية من الوصول إلى دجلة".

"يذكر أبو الفضل - في مراصد الاطلاع - أنَّ بلدة سباثا قرية كانت قريبة من المدائن عندها قنطرة على نهر الملك. وكأن القرية سميت بالقنطرة لأنَّها "ساباطا" أي عبور، ارتباط، حلقة وصل، ساباط. ولا تقع سباثا بعيدًا عن المدائن - أي سلوقيا القديمة وطيسفون - الواقعة على نهر الملك. واستنادًا إلى هوفمان - مقتطفات، سنة ١٨٨٠ - فقد أُرسل الشهيد كيوركيس إلى ماحوزي وسجن في قلعة دعيت بـــ: أكراض خوخي، وتعني ماحوزي في الآرامية نفس ما تعنيه المدائن العربية، وخوخي هي كوخة الكلاسيكية. موضع سباثا هو في خرائب المنيّر الحاليَّة، التي تبعد نحو خمسة كيلومترات إلى الشمال الغربي من تلّ عمر - كوخة القديمة - وعلى بعد ٥،٥ كيلومترات من دجلة".

"توصلنا المسافة الأخيرة من الرمادي، موقع بسيخانا، إلى بلدة المسيب الصغيرة الحديثة الواقعة بصورة مباشرة تقريبا في الجنوب الشرقي من موقع سلوقية، وقد نتوقع أنَّ الطريق الرئيس استدار شرقًا في نقطة وصل عندها خط عرض سلوقية في مكان ما بين خرائب بثرا ومدخل قناة المحمودية الحالية واستنادا إلى زوسيموس في كتابه غادر الرومان

بقيادة جوليان سنة ٣٦٣ نهر الفرات وكانوا في أغلب الأحوال يسيرون بمحاذاة الطريق الرئيس واستداروا نحو طيسفون، ولهذا يمكن الافتراض أنّ بثرا كان الاسم المحلي للبلدة الإغريقية نيابوليس"

"ومن نيابوليس إلى سلوقية بحسب ايسيدور كانت المسافة ٤٢ كيلومترا. في نيابوليس نستطيع أن نحدّد موقع جسر دمره الفرس في عام ٥٨٠ م عندما كان الجيش الروماني بقيادة موريس يصاحبه الأمير الغساني المنذر بن الحارث يتقدم مع قوات عربية احتياطية. ويكتب يوحنا الأفسوسي في التاريخ الكنسي: كان الجسر قد أقيم على الفرات في بيت أرماية قرب العاصمة الفارسية المدائن. وكانت بيت أرماية الاسم السرياني للجزء الشمالي من بلاد بابل الأصليّة وكانت عاصمتها المدائن تقع مباشرة شرق نيابوليس".

o

بعض الحملات الرومانية على بابل:

- الامبراطور كورديان الثالث مات في ٢٤٤ م في زايثا على الفرات.
- الامبراطور كارس مات في المدائن في عام ٢٨٢م.
- الامبراطور فاليريان أُسر ومات في الأسر عام ٢٦٠م.
- الامبراطور جوليان قُتل في ثمارة أي سامراء ٣٦٣م.

o

نترك الامبراطور جوليان وجيشه يزحف نحو بابل على الطريق الرئيس في المسيب بتعبير زوسيموس، في المكان الذي قتلت فيه فوزية جبار، لكن جوليان نفسه سيُقتل على ضفاف دجلة بسهم طائش حسب التعبير المحبب للمؤرخين. من غير الأخلاقي أن نفكّر في نصر أو هزيمة جوليان أو غيره لأنّ أقذر اختراع لغوي بشري في التاريخ كان كلمة "نصر" في هذا النوع من الحروب الوحشية.

بين مقتل امبراطور وراقصة غجرية هوة أو هاوية: موت الامبراطور مؤرّخ في التاريخ الروماني والبشري كما هي حياته بالتفاصيل. موت وحياة راقصة غجرية لا يعني أحدًا ولا يوجد سوى في سجل مهمل مغبَّر وتالف في سجلات مركز شرطة المسيب الذي يشير إلى الحادث بصورة عرضية مضجرة. لا حـــاجة لتعداد الفوارق لكي لا نقع في متاهة أخرى.

جوليان في الطريق إلى بابل بعد أن هبط من الخابور، وشاحنة في الطريق الرئيس تخترق الآن الأراضي الآشورية والمعابد المهدَّمة والاطلال المندرسة – في الطريق المعاكس – التي تنعق فوقها الغربان. امبراطور يريد الاستيلاء على عاصمة أسطورية والحصول على مجد التاريخ ونزلاء شاحنة يريدون الاستيلاء على مكان للنوم والخبز والمسرّة وممارسة العزاء والموت والعثور على مكان هادئ للإقامة.

"أين نحن الآن؟"

قلت: "مشارف نينوى".

قال:"نصمت أم نواصل الحكي؟".

"عن أيّ شيء نتحدث؟".

"عن زمن سحّاج أو التقشير كما تسميه".

وضحك بامتلاء حقيقي وسرور.

الفصل السابع

طريق الحلم

"الناس ما هُم سوه – منهم شريف وجلب – ولو عضّك جلب – همْ يمكن تعض الجلب؟"

– من أغاني فوزية جبار المسجلة، وأُم بياتريس.

٥

طرقنا على كوران أو حسين مردان أو أيّ اسم آخر ولكنه لم يتوقف، كما لو أنّه يقود الشاحنة نائمًا ومن المحتمل انه كان أيضا يسافر في متاهة تاريخ آخر. خطر لي ما أن نزلت متيبس الأطراف الأسود الآشورية تسرح في سهول نينوى المعشبة والمشرقة بالضوء والفواكه والمعابد والكنائس والأبراج والقلاع. من هذه السهول وقبل خمسة آلاف سنة قبل الميلاد انطلـــق الحثيون والحوريون في نشر عبادة الآلهة عشتار إلى البلدان المجاورة.

كيف يمكن فهم أنّ آشور بانيبال بنى مكتبة كبيرة عام ٦٥٠ ق.م وفي الوقت نفسه كان ملوكها يسملون عيون أسراهم ويجذعون

أنوفهم ويقطعون أيديهم وآذانهم في احتفالات عامة صاخبة في الشوارع؟ "مدينة الدمار" هذه حسب وصف النبي يونس التوراتي تنهار كحائط خاوٍ أمام تحالف بابلي ميدي وفيضان سنة ٦١٢ ق.م ويبقى الرخام يحكي للريح ملحمة حضارة عظيمة حائرة بين المكتبة وتسلية القتل.

لعبة الهرب من الحاضر في شاحنة غجر تشبه لعبة الهرب إلى التاريخ عبر المخيلة. يبدو أنني هارب من المكان القائم إلى المكان المنقرض، ومن الزمان أيضًا: من الحاضر إلى الماضي، من اللحظة إلى التاريخ، من الواقع إلى الأسطورة، من قلعة برتو الجديدة إلى قلاع نينوى القديمة، من المكتبة الحاضرة المزدحمة بالفراغ إلى مكتبة آشور المتلاشية، من الموت إلى البرية مثل كلكامش البابلي ولكنني لا أبحث عن عشبة الخلود بل عن مكان وضوء وعشاء طيب وآمن وحديقة.

بردت الحقول من وهج آب المحرق، الشهر الأكدي "أبو" وفي التاسع منه يصوم اليهود كذكرى لخراب أورشليم. إذا صمنا من أجل الخراب كم نحتاج من قرون؟ خراب نينوى، خراب بابل، خراب أور، خراب برتو، خراب بغداد، خراب، خراب؟ بياتريس أرقصي الهُجَّعَ على إيقاع الطبل وانزلي إلى الأرض واتركي شعرك يهبط مثل شلال من الصخور على رأس هذه الأرض النائمة ودوري كعصفور أعمى أو مصاب بالحمى أمام وهج نار حسين مردان كما

كان يدور أسلافنا في الكهوف حول النار وهو ينشدون على الطبل نفسه وعلى الإيقاع نفسه عسى أن تخرج لنا من هذه السهول الصيفية الفسيحة الأسود الآشورية أو نعثر على بقايا قلعة نسي الغزاة القدامى تدميرها لأنهم انشغلوا بنبيذ الأديرة والمعابد وتركوا خلفهم تذكارات على جدران لم تعد موجودة مثلنا في أية لحظة. أرقصي الهُجَّع مثل زنجية من الكاريبي أو أمريكا أو أفريقيا على الإيقاع نفسه، التعبير الوحيد الشفوي، الردّ الوحيد غير المسجل على وحشية العالم، وافردي جناحيك لكي نطير كلّنا مع الشاحنة إلى أيَّة قلعة في العالم إلاّ قلعة سيد الواقع المتخيل.

حين كنّا نجلس في حقل من العشب الجاف من الشمس على تخوم نينوى للاستراحة، باغتني كوران بزجاجة عرق مستكي كاملة مع كأس لبن اشتراه من الطريق ولكنه لا يدري أنّه بهذا ارتكب خطأ لا أحد يهجس باحتمالاته: فلا أنا من هذه اللحظة هو أنا ولا كوران هو حسين مردان ولا الشاحنة ولا الأسود الآشورية ولا قلعة برتو موجودة ولا جبال أو ديانا ولا القصور الملكية ولا وجود للكمالية أو حيّ الطرب بل لا وجود للحلاج وبابل وهوميروس أو جوليان المتخيَّل الوهمي المصنوع من مخيَّلة مرتبكة، ولم يعد بعد الآن أي وجود لا لشهر آب الأكدي ولا خراب أورشيلم أو حمامة نوح أو مستوطنة السحّاجي. الوجود الحقيقي الوحيد بعد الآن هو الوهم والتخيّل والاضطراب والشطح والدهشة والانتظار وغير المتوقّع وغير

المبني وغير الموجود وغير الممكن وغير الحقيقي وغير الواقعي وغير الأرضي.

من هو سيد قلعة برتو الجديد ومن هو آشور ومن هو جوليان المضرّط ومن هو موسيل وهل صحيح أنّ شقيقه روبرت موسيل كتب رواية "الصبي تورليز" أم أنّ كلّ ذلك من اختراع مخيَّلة محاصرة كعقرب في حلقة نار؟ مرت من الشارع العام قافلة جنود وشاحنات عسكرية مموّهة بشبكات الغش والاختفاء التي أعرفها من أيّام ديانا وزوزك وهندرين وكورك ولوح الجنود لنا ببنادقهم. هل هم جنود جوليان نزلوا من الخابور أم جنود قلعة برتو؟

كنت أنظر إلى النار المشتعلة في السهول المسائية تحت شفق رمّاني وحولها بلزاك الفتيّ بعد أنْ تلاشت تجاعيد الوجه الصخري تحت ظلال النار وبياتريس تغني ومديحة صالح جالسة على علبة صفيح ونوال جياد تضحك وكنت منتشيًا لفرح الطفلين الجالسين كدميتي أزياء وحسين مردان يحدِّق بي كما يحدِّق صيّاد جبلي بقبج بحذر ونواح فالح حوم ورابته وزنجاري مزاهر ومناظر ورسوم الشاحنة فشعرت أنّ المشهد برمته قادم من الأدغال البدائية، من الكهوف العميقة والخلجان المخفيَّة، من صرخات ورقصات الكائنات البشرية قبل أن تخرج من الطبيعة إلى الغابة. هل هذا مأتم سومري أم عيد بابلي متنقّل؟

رموز وعلامات وكتابات الشاحنة مجرَّدة من كلّ شكل من أشكال القداسة والرمزية والرصانة، ولو كانت عكس ذلك لمحيت من الوجود في لحظات لأنّ نزع القداسة عن كلّ شيء أمر ضروري لتكريس القداسة الوحيدة الباقية لسيد برتو. حين نتخلّى عن كلّ قداسة بما في ذلك الفردية واحترام الذات والرموز والوعي والطموح والحلم والمكان ندخل في قداسة مزيَّفة من صنع كائن مصاب بعقلية الثأر وجنون الانتقام، ليس منّا فحسب بل من التاريخ أيضًا الذي ليس على صورته – سيصنعه على صورته. المكان محجوز بالصور والرموز والشعارات كالحلم. الفراغ مُلغًى لأنّه محجوز للمقدّس.

هذا هو السبب الذي جعل سيّد الواقع المتخيَّل والمجتمع الوهمي يبني قصرا في سنوات لاحقة على أنقاض برتو التاريخية وبقايا قصر العاشق الحقيقي لكي ينسى – ولم يستطع – صورة طفولة مشوَّهة لكن بعد إفراغ الأمكنة من المعنى وتحويلها إلى مكان واحد من أمكنة العزل بحيث صار الإنسان يشعر أنّه لا يمشي فوق مكان أصلي بل على مكان مصنّع بلا هوية ولا تاريخ ومجرَّد من ميزة المكان البشري إلى مكان جديد للبهائم أو الدمى المتحركة المفرغة من الرغبة ومعبأة بالذعر وهذه الغواية تدفع سيِّد برتو لتحويل سكان قلعته والمدن الأخرى إلى نزلاء ورعايا لمكان متخيَّل ومجتمع متخيَّل صنع على صورته لكي يصبح النموذج الوحيد الحقيقي أمام مسرح هزلي أو سيرك ممثّلين وليسوا مواطنين. هنا تكمن المتعة الحقيقية ومصدر فكرة

إعادة كتابة التاريخ من جديد؟ الجديد هو حضوره الطاغي وغيابنا الكلّي لأنَّ هذا الحضور مؤسَّس على ذاك الغياب.

لماذا حُذِفَ تاريخ قلعة برتو القديم وعُتِّم عليه؟ مالك الواقع المتخيَّل لا يمكن أن يكون قد جاء من الامتلاء والنور والمعرفة. ان هذا المجيء يتناقض مع الرمز والفرادة والقيادة والسمو والألوهية، ويجب أن يأتي من العتمة بل من الديجور والغيب والحطام والعماء العام والأطلال والفراغ واليأس مثل كلّ الولادات الكبرى، ولو لم يكن يخشى السخرية لقال عن نفسه أو قال المؤرخون والمنجمون الانتهازيون إنَّه عُثر عليه ملفوفًا في قارب وعلى كفّه وشْمُ غزال هو نبوءة قديمة لكهنة ورهبان قلعة برتو القديمة عن قدوم مسيح عراقي خاص على صورة عباس السبع لكن أكثر مهارة منه لأنَّه عرف أنَّ خطأ السبع القاتل هو اعتماد السكّين فحسب وليس الإيديولوجيا.

كان يجب حذف كلّ تاريخ لقلعة برتو القديم وغيرها لأنَّ حاضر سيّد الواقع المتخيَّل لا يتحمَّل أيَّ سابق، لا في الحكمة ولا في المعرفة ولا في الرمز: واذا كان هناك "سابق" فهو بلا شكّ يقوم بدور ممهّد الطريق لطفل جريح الذات ولد في مغارة كعلامة يعرفها الكهنة على ظهور المخلّص من الظلام، من الفراغ، من اللارموز، من اللامكان، من اللاتاريخ، من اللاوجود، من اللاوعي، من اللاحضارة، إلى النور

والمكان الجديد والتشابه: المخلّص يحتاج القطيع والتشابه، وإلا ما معنى الفرادة على حضور الناس والتاريخ والمعرفة؟

هذا الغياب فُصّل لتكريس ذاك الحضور - حضور سيّد الواقع المتخيَّل - وهو لا يريد الخضوع وحده بل التقديس عن طريقين: تحويل نرجسيّة سيّد الواقع المتخيَّل إلى إيديولوجيا لإقناع أو خداع الأتباع والرعايا على حدّ سواء وخلق أسطورة شخصيَّة ملفّقة عن ولادة تاريخية تخفي الهيام المرضي بالذات، وكلّما تداعت هذه القيود غير المرئية والجهنَّمية تُدفع الجموع إلى السحب من الميراث الديني والتاريخي والأسطوري لتعزيز السيطرة التامة على كلاب بافلوف. ارقصي بياتريس من أجل كلاب بافلوف المطوّرة الجديدة التي تعيش في المختبرات للتجارب ولكنها تأكل بعضها للتسلية وليس من الجوع.

إلى أين ذاهب الآن؟ بلزاك العجوز تنتظره ذاكرة عشق قديم في خليفان، وانا خلفت ورائي ذاكرة خراب، بلزاك على موعد مع ذكرى حبٍّ في خليفان وأنا على موعد مع ذكرى حرب في ديانا. ولعبة استدعاء الماضي والرموز؟ ردّ على التهديد بالاقتلاع بالتمسّك بالماضي الحقيقي والأسطوري لمواجهة واقع غير حقيقي ولكنَّه أسطوري؟ وبلزاك بماذا يتمسَّك كردّ على التهديد بالاقتلاع؟ ما هو ماضي الغجري؟ أين يغرز جذوره في لحظات العواصف؟ في الكباري

أم في العربات القديمة المزركشة التي تجرها الخيول والبغال؟ في الطبل أم في الخيمة أم في الربابة؟ هل صحيح أنَّ عالم بلزاك بلا رموز ولا جذور؟ ولكن ماذا تنفع الجذور الآن ولو كنت من سلالة نبي أو الملك فيصل أو عبد الكريم قاسم أو نابليون أو السهروردي أمام أيِّ شبح أو ظلٍّ في الطريق أو في الحلم أو في العتمة؟

هل الجذور في التاريخ أم في القلب؟ جاهزة أم خلق؟ جذور بلزاك وعائلته في القادم، في الطريق، ويستطيع التحقق منها في الطرق القادمة، وجذوري تم بترها كذيل سحلية يتحرك بعد البتر حركة همشوائية أو كما يحسُّ صاحب اليد المبتورة بحضور اليد النفسي رغم مرور سنوات، لكي لا تنغرز جذورنا لا في التاريخ الذي تكتبه الإيديولوجيا اليوم ولا في الحاضر الفردي لأنَّه يتقاطع مع الحاضر العمومي كالساحات والمباول العامة ولا في المستقبل أو في الطريق القادم لأنَّ كلَّ الطرق والأزمنة والرموز محجوزة لسيِّد قلعة برتو.

كان الظلام كثيفًا ورائبًا كحائط أسود - الاستعمال اللغوي الذهني لكلمة أسود حوّلها إلى واحدة من مفردات العنصرية كالقول مرحلة سوداء وخبر أسود وحُكْم أسود وقلب أسود وجهل أسود مع أنَّ الأسود لون أساسي في الحياة - عندما استيقظت في الليل على نباح كلاب وطبول وصرير حشرات ورائحة ليمون - رائحة الليمون مقرونة دائما بذكرى الأرملة - وعطر تراب مبلّل بالندى

والعشب والسكون والنسيم وناديت نزلاء الشاحنة فلم أعثر على جواب أو صدى وتذكرت أحلام الليل المتداخلة مع بعضها كنبات متسلّق: كانت صور الأحلام تبدو كصور قديمة مغبَّرة بالأبيض والأسود، ومن الغريب أن تتداخل أصوات فرقة موسيقية خارج الشاحنة مختلطة مع أصوات فرقة موسيقية في الحلم خلال النوم وبعده

حلمت بأنني ذهبت مع فرقة موسيقية في رواية "الجنرال" لـــ ألان سيليتو للعزف في جبهة حرب للترفيه عن الجنود ثم وقعنا كما في الرواية في الأسر والحوار المتشنّج العبثي الذي كان يدور بين الجنرال الآسر وبين قائد الاوركسترا الأسير وكيف أنَّ كلَّ واحد منهما كان ينظر إلى الآخر كما لو أنَّه ينظر إلى أعجوبة، ومن ثم انعدام لغة مشتركة بين الاثنين لأنَّ الجنرال الذاهل من وجود فرقة موسيقية في جبهة حرب كان يقول لقائد الأوركسترا: "ما جدوى الموسيقى؟" فيردُّ عليه قائد الأوركسترا: "وما جدوى الحرب؟".

على هذا النحو استمر الحوار في الوقت الذي تصل فيه الجنرال أوامر بإعدام الفرقة الموسيقية لعدم وجود سجن لهؤلاء المجانين، ثم وفي مشهد آخر أجلس في ملجأ واسع من الواضح أنّه في موقع حربي متقدم وأجري مقابلة صحافية مع جنرال ومن غير المؤكد أنّه هو الجنرال السابق وليس من المستبعد أن يكون هو وليس من الواضح أيضًا في الحالتين أين وقعت تلك الحرب وما هي هوية الجنرال الآسر

والجنرال الآخر ولا أتذكر حرفًا واحدًا من الحوار الذي دار بيننا ولكنني أتذكر أنَّ ملامح وجه الجنرال كانت تتغيَّر حسب الأسئلة – أية أسئلة؟ – قال لي في النهاية مصافحًا: "عبثًا يحاول يزدجر".

ليست عندي فكرة واضحة عن الجهة التي أرسلتني لمحاورة الجنرال ولا كيف ذهبت مع الفرقة الموسيقية في رواية ألان سيليتو وكانت أصوات فرقتنا الموسيقية الترفيهية البريئة تتداخل مع أصوات عدة فرق خارج الحلم وخارج الشاحنة، ومع أنَّ جنرال سيليتو لم ينفذ أوامر عليا بإعدامنا بل قرَّر رفض الحرب تماما لكن عبارة الجنرال الآخر لم تكنْ واضحة لي، وبدت مبتذلة وصبيانية ومن يدري قد تكون لغزا عسكريا أريد تسريبه من خلالي عند النشر كإعلان عن حرب وشيكة أو كتهديد أو قد يكون الجنرال قصد من وراء ذلك أن يظهر كموسوعي في تاريخ الحرب، والشيء الوحيد الباقي من مقابلته هو عطر أشجار الليمون عبر كوَّة الملجأ القيادي الواسع لأنَّ المقرَّ كان داخل غابة كثيفة حتى أنّني لمحت عبر الكوة أكثر من سنجاب يرنو نحوي بوجه بشري ساخر أو مهدّد وقد كان الجو كابوسيا كصورة دعائية لرواية المحاكمة لكافكا.

ولكن أين هو بلزاك العجوز وفرقته الموسيقية؟ ولماذا تركوني وحيدًا في الشاحنة وماذا حدث قبل النوم؟ تذكّرت السكر ووجه حسين مردان المصعوق وغناء بياتريس وضحك بلزاك وربابة فالح

حوم وطبل مزاهر ورقص نوال جياد وسرور مديحة صالح والنار المرتجلة في العراء ورائحة العشب ومناظر الشاحنة الواقفة ومرور عجلات الجنود على الطريق العام والمرور الشبحي الخاطف للأسود الآشورية والقلاع وقصر محترق، وكلّ ذلك كان يندمج مع فرقة موسيقية وقعت في الأسر في حرب، غير واضح لا في رواية "الجنرال" ولا في الواقع أين وقعت. أبعد من ذلك بدا، تحت ثقل اللحظة الراهنة، أنّ الأسر كان مريحًا ويحمل غواية الحريّة بل بدا الأسر منقذا من هذا الهرب المتواصل. ولكن أين ذهبوا؟

فكّرت أن أنام مرة أخرى لا عن خيار ولكن عن جزع فماذا يستطيع شخص مثلي أن يفعل في مثل هذه الظروف؟ بل فكرت على نحو جدّيٍّ في العودة للّحاق بالفرقة الموسيقية في الحلم ــ ما الفارق بينها وبين فرقة بلزاك؟ بل ما الفارق بين الأسر هنا في الشاحنة أو في الحلم ومعرفة مكان تلك الحرب التي لا يقول سيليتو أين حدثت ولكنها على أيّة حال لا تشبه الحرب التي عشتها في ديانا وفي الجبال؟

نجحت في النوم وحلمت أنّني أركض في البراري الفاتنة حتى استيقظت ثانية على صوت منبّه سيّارة طويل لسبب غير واضح ــ مع أنّ الشاحنة مركونة خارج الطريق العام ــ ثم عدت هذه المرّة واستغرقت في نوم عميق بدون أي جهد كما في المحاولة السابقة

وحلمت هذه المرّة بأنّني أسحل بحصان وسط نساء نائحات ورجال غاضبين وكنت أرفع قبضتي متوعّدًا عدوًّا غير مرئي من المحتمل أنّه كان بين الجمهور الغاضب لكنّه مختبئ.

على شمس مشرقة وحارّة استيقظت للمرّة الأخيرة فلم أجد أحدًا أيضًا وعادت مشاهد أحلام الليلة الماضية. وفي انتظار قدوم أحد شرعت في استعراض أحلامي بهدوء ورويّة:

الحلم الأوّل: الذهاب مع فرقة موسيقية من أجل حفل ترفيهي في حرب لا تعني أحدًا في الفرقة ولكنّنا نقع في الأسر. امتزج معه حلم مقابلة مع جنرال في حرب وشيكة.

الحلم الثاني: العودة إلى البراري.

الحلم الثالث: الصَّلب - كما يسمّيه بلزاك العجوز - وهذه المرة في صورة سحل بحصان وقد تكون اختلطت هذه الصورة مع رواية بلزاك عن مصير عباس السبع، وهو مصير لم يعد غريبًا هذه الأيّام. إذن من حلم الأسر إلى حلم البراري إلى حلم الصَّلب: ثلاثة أحلام بالخلاص ولو عبر الأسر أو الطبيعة أو الموت. ولكن أين ذهبوا؟

هل كان هذا الهروب ضروريًّا؟ ألم يفاقم من الموقف ويظهرني بحجم أكبر بعين مطارديّ خاصَّة وأنا لا في العير ولا في النفير؟ هل يخفي هذا الهروب رغبة داخلية غير واضحة في البرهنة للذات على أنّ

الواقع القائم ليس هو الواقع الوحيد وفي الإمكان خلق، عبر تفاصيل إنسانية بسيطة، حقيقة أكثر شاعريَّة وأناقة ورقّة؟ أم أنَّ هذا الهروب كان تلبية لنزعة ذاتية دفينة طمرها القمع الطويل في خلق ذات مضخَّمة - كما حصل للدكتاتور الطفل - في نظر مطارديٍّ لكي أشعر بتفوّق ما ولو في مجال التخفّي مقابل شعورهم بالعجز في العثور عليّ؟ ربما يكون هذا الهروب هو دفاعًا مضادًّا لذات تريد إثبات وجودها في مقابل الإنكار، تريد الحضور كردٍّ على التغييب. الغائب لا يُرى، لا يُطارد. هو، إذن، صراع بين وهمَيْن: سلطة واهمة بشبهة جرم لم يقع، وهارب يحاول إثبات هذا الوهم لأنَّه ضروري لحضوره الكياني.

طُلب من بلزاك العجوز أن يقول لكل زائر أن "يأخذ حذره لأنهم في كلِّ مكان" أي أسلوب الاعتقال الذاتي لكي يعيش الفرد محاصرًا بالخوف والتوقّع والهاجس ويحاصر نفسه ويكون صيَّادًا لنفسه وسجنها ومطاردًا لهواجسه وأحلامه ونواياه، وعليه أن يعتذر عنها في أقرب فرصة قبل أن تُكتشف من سلطة آذان الحائط أو غيرها لأنَّ هذه السلطة لم تعد موجودة في الخارج بل في الأدغال النفسية العميقة والمتشابكة: في الهواجس والأحلام والنوايا - آخر ملاذات الآدمي.

هذا هو الغرض من الغيتو - من الثكنة والمنظّمة والمؤسّسة والجريدة والمدرسة والشارع والبيت والسجن والقانون والجدران والشاحنة

والصمت - حيث يصبح فكر الفرد وعاطفته وسلوكه منصبًّا على إثبات براءته من تهمة أو شبهة وهميَّة من خلال تقديم الولاء في كلّ مناسبة وأحيانًا بلا مناسبة حتى لو كان يجلس مع نفسه المنقسمة لكي يشعر بلذَّة البراءة من نوايا خفيَّة تسكن في أعمق أعماقه.

تحضر هنا صورة زميل صحافي كان يقرأ رواية جورج أورويل "١٩٨٤" وبين صفحة وأخرى يرفع وجهه الذاهل إلى صورة كبيرة لسيّد المجتمع المتخيَّل على الجدار - أيّ جدار لأنَّ وظيفة الجدران تغيَّرت إلى حامل رموز - وهو يقول بصوت مشروخ وعميق ولاهث بين السخرية والهلع: "عليّ أن أُسلّم نفسي لأقرب منظمة وأكشف عن نواياي قبل أن تُكتشف".

عالم رواية أورويل اندمج في ذهنه مع عالم سيّد الواقع المتخيَّل الأكثر واقعية من الواقع نفسه أو الواقع البديل كما اندمج عالم سيليتو في أحلامي المرتجلة في شاحنة: وكما أنَّ عليه تسليم نفسه إلى أقرب منظمة "استبدال وظيفي للكاهن" عليّ أيضًا أن أسلّم نفسي أو أن أقع في أسر مفتعل أو حقيقي بيد أقرب عدوٍّ واقعي أو في حلم "استبدال وظيفي لموت رمزي كخلاص".

هنا تتقاطع الطرق بيني وبين هذا الزميل: الكاهن للاعتراف والتسليم بخطيئة، والأسر للإنكار والهروب من جريمة، على أنَّ التمايز

ليس قطعيًّا: فربما يكون الاعتراف والتسليم إنكارًا وهروبًا وبالعكس. في هذا الشغب أو الشرك النفسي المُعدّ ليس هناك غير الدوّامة: الدوّامة ضرورة ملحّة للسيطرة.

على سبيل المثال صدر قرار سرّيٌّ عُمّم عبر الأجهزة بأن كلّ من يعثر على قطّ حيٍّ أو ميتٍ لأسباب تتعلّق بالصحّة العامة ويسلّمه للأجهزة يستلم ٢٥ دينارا - ما يعادل ٨٠ دولارا يومذاك - وقد صدر قبل نهاية الشهر ببضعة أيّام حين يكون القطاع الواسع من العاملين والموظفين في شبه عوز: إنّه تمرين عمومي للامتثال والإذلال والطاعة عبر مطاردة حرة ومفتوحة لقطط بريئة وجدت نفسها فجأة في مواجهة مع سلطة سيّد العوالم المتخيَّلة. ليس للإذلال والإذعان فحسب بل للمتعة والشماتة والسخرية ــ سخرية سيِّد الواقع المتخيَّل كتعويض عن جرح نرجسيٍّ عميق.

بجانب الرعب يتمُّ التحكُّم الخفيُّ من خلال آليَّات الامتثال والترويض والمكافأة والتشجيع والتكرار والسيطرة على عواطف الإنسان وغرائزه وحتى مجاله الوحيد في التخيُّل بحيث يصبح الرمز، الصورة، الشعار - وهي تملأ كلّ الأمكنة - الواقع الوحيد، وتُترك هوامش تافهة فيبدو، مثلا، ظهور بلزاك العجوز أو بياتريس أو حسين مردان في هذه اللحظة، أو نزهة عابرة، أو النوم، أو الضحك، أو السباحة وكأنّه معجزة، فذهنيَّة التشبث تلازم الغريق، بحيث يبدو

هذا الظهور المفرط في عاديَّته في الأحوال الطبيعية وكأنه معجزة بالنسبة لفرد منهك من شروط العيش في زمن سيّد الأشباح الحقيقية الوحيد وخالق الواقع المتخيَّل لا على ورق بل على أرض، وعلى أن يكون صيَّادًا لنفسه أو متبرّعًا بكيانه لسيّد الأشباح.

أشباح الزمن السحّاج، زمن التقشير، لا تختفي حين تختفي بل تظهر في أزمنة أخرى وفي أجيال أخرى. هذا الظهور الطقسي المتكرِّر لهذا الرعب المبرمج عبر قرون كفصل خامس من فصول السنة هو الذي جعل الناس هياكل منفية في شوارع "قدرية" مصنوعة من الظلال وصارت الثورية مقترنة بالرذيلة والحرية بالجريمة والقانون بالاستباحة.

ظهر حسين مردان في البعيد كظهور رجل من نبوءة دينية كبرى بعد هذا الانتظار وقبل أن يقول كلمة واحدة وقف يتأمل الشاحنة من جميع الجهات قبل أن يُلقي نظرة عليّ ولكنَّه كما لو بوغت قال:

"تركناك لتنام هنا بعد أن تحوَّلت إلى ذئب يعوي".

وأضاف: "سيأتي صاحبك بلزاك القصخون والجماعة".

تابع: "قضيت الليل كلَّه أحلم بكوابيس القبض عليّ من الرفاق القدامى ويبدو لأنَّنا نقترب من تلك المناطق".

قلت تحت تأثير صداع مروّع: "كنت أحلم بالأسر في حرب".

ضحك حسين وهو يقول: "حتى في الحلم نحن أسرى؟".

- كيف هم أقارب بلزاك؟

"في أسوأ حال".

- أين سيكون الطريق الآن؟

قال: "أربيل طبعًا".

" أربا - ايلو، قلعة الآلهة الأربعة؟"

رد حسين أو كوران ساخرا:

-"كانوا أربعة، صاروا اليوم اثنين".

الفصل الثامن

طريق هاملتون

طلب كوران منّي هذه المرة الجلوس الى جانبه. قال: "نحن الآن في طريق بوَّابة الشمس أو إله الشمس وفيه سور آشور بانيبال والمكتبة وتلّ النبي يونس. أمامنا ٨٧ كلم إلى هولير".

تجاوزنا عدّة نقاط تفتيش عسكريَّة لكنَّنا عند مدخل أربيل وقرب مقرّ فرقة المشاة الثامنة - كنت في فوجها الثالث، اللواء الثالث، والاسم القديم: فوج الملكة عالية، لواء الملك غازي - وقعنا في مأزق مع أحد الضبّاط يشبه مأزق قائد الأوركسترا في رواية سيليتو وبين الجنرال الآسر.

كان الضابط وهو برتبة ملازم يسأل بلزاك عن الهوية، فيرد عليه الآخر "كاولي".

يصرخ الضابط بانزعاج: "كاولي يعني شنو؟".

فيردُّ بلزاك ببرود عريق حيث رضع هذا النوع من الأسئلة: "يعني دك وركص". يزعق الضابط: "والشاحنة؟".

يردُّ بلزاك: "الشاحنة عراقية".

يكرّر الضابط صراخه: "وأنتم؟".

يردُّ بلزاك: "كاولية".

"ماذا تفعلون هنا؟".

"السفر إلى بلدة ديانا".

"هويات، وثائق، يعني أوراق؟".

أجاب بلزاك: "لا يوجد فينا من يحمل هوية لأنَّ الكاولي لا يحمل وثائق رسمية عدا الشاحنة وعندي وثيقة قديمة لحصان عراقي".

"الحصان عراقي، وأنت؟".

"من أنا؟ كاولي طبعًا".

قطع هذا الجدل رتل عسكري طويل خرج من الثكنة التي تقع على يسارنا واندفع حسين مردان إلى الأمام وتحوَّل وجهه إلى لون الرَّماد والشّحوب، في حين كانت قلعة أربيل تلوح في الأفق، ولكي يداري قلقه كان حسين يمدُّ يديه ويشير بأصابعه نحو كلِّ الجهات عبر نافذة السيارة: "من هنا شارع مظفر الدين، هناك شارع خانزاد، على اليسار شارع صلاح الدين، في القلعة توجد ثلاث محلات: السراي والتكية والطوبخانة. الأغوات هنا والأشراف هناك والفقراء في تلك الناحية وتلك بيوت المرتزقة. هذا الطريق إلى مخمور، ذاك إلى

كركوك، من هنا إلى راوندوز. هنا دارت معركة بين الاسكندر المقدوني وبين دارا ملك الفرس – ٣٣١ ق.م – في سهل كوكاميلا حيث هرب ملك الفرس بعد أن دفن كتره في قلعة أربيل والناس تبحث عنه حتى اليوم. نحن الآن في الطريق إلى عينكاوة".

وأضاف ضاحكًا بعد أن استردَّ أنفاسه: "هل تريد السباحة في محلّة آشتي أو السايدين حيث الحمّامات من حجر الحلان والسيراميك ونبيذ أحمر معتق؟".

"ليس الآن".

كانت الشاحنة تصعد جبل بيرمام المطلّ على أربيل من جهة وجبل سفين من جهة أخرى وعلى قمته يقع مصيف صلاح الدين. سمعت حسين مردان يشرح: "من هذا الطريق يمكن المضيُّ إلى مصيف سره رش، من هناك غابات السرو والبلّوط، فندق صلاح الدين على هذا الجانب". غادرنا جبل بيرمام نحو جبل سفين وعلى قمته بلدة شقلاوة ويرتفع ٩٦٦ مترًا عن سطح الأرض، حيث تشرق في الضوء النهاري أشجار اللوز والعنب والتفاح. المقاهي والمطاعم والدخان والأشجار على الجانبين.

قال حسين: "نحن الآن في سهل بلدة حرير في الطريق إلى مضيق سبيلك". تلوح في الأفق سلاسل جبلية مغمورة في النور البهي، ثم بدأنا في الصعود حين قال حسين مردان: "الصعود على هضبة سبيلك

صعب لأنَّ مغناطيس الأرض يسحب الشاحنة كجبل بيرمام".

قلت بما يشبه الذهول: "نقترب من خليفان".

ضحك حسين مردان وقد عاد لونه الوردي: "عش غرام بلزاك أو حوم".

ثم هتف عبر نافذة خلفية في الشاحنة: "هذه خليفان"

سمعنا بلزاك ينادي: "توقَّف، توقَّف".

نزلنا من الشاحنة إلى سهل فسيح معشب وفُرشت مائدة كبيرة ومرتجلة كما في كل محطة استراحة، أمَّا بلزاك العجوز وأنا فلقد جلسنا فوق صخرة كبيرة في مكان دغلي منعزل كصقرين هرمين يترفان بصمت على قمة جبل وهما يحدِّقان في الفراغ الضاجّ والأبديَّة: هو يستعيد في خليفان قصّة حبٍّ وأنا أستعيد قصة حرب من فوق صخرة واحدة.

o

من تقرير جهاز الباراستن ـــ جهاز الاستخبارات التابع للحزب الديمقراطي الكردستاني – عن معارك سنتي ١٩٧٤ – ١٩٧٥ وكنت يومها في اللواء الثالث الذي يشير إليه تقرير الباراستن تحت عنوان: الهجوم الكبير، مع المقدمة الملحقة به:

"المقدمة: في الثامن من أيلول عام ١٩٧٤ بدأ النظام بهجوم واسع النطاق على حوض رواندوز من جبهتين: واحدة من ناحية جبل

كورز إلى منطقة بالك، وأخرى من كورك إلى بيخال إلا أنَّ الهجوم أحبط وأُصيبت القوات الحكومية بهزيمة ساحقة وارتدَّت إلى الخلف تاركة نحو أربعمئة جثَّة. خسائرنا ستة شهداء. أبلت مدفعية الثورة بقيادة حالي دولومري أحسن البلاء. إلاّ أنَّ النظام عاود الكرَّة وكان الهجوم بقيادة اللواء اسماعيل تايه النعيمي إلاّ أنَّه لم يحقّق شيئًا حتى ١٩ أيلول. وفي هذا اليوم شنَّ العدو هجومًا معدًّا وفق خطة فاقت تصوّرنا، فقد أرسلوا ليلاً البلدوزرات الثقيلة إلى أسفل جبل كورك ما بينه وبين بيخال فأزاحت كتلة الصخور وفتحت طريقا لانحدار الدبابات".

" وقبل طلوع الفجر نزلت الدبابات من القمة إلى ما وراء بيخال ولم تجد أمامها مقاومة إذ لم يدُرْ بخلد أحد أن تغدو هذه المنطقة يوما ساحة صالحة للقتال، فأُهملت طوال الحرب ولم يشعر البيشمركة بالوطأة إلاّ بعد أن وصل رتل الدبابات الطريق العام المؤدي إلى بيخال راوندوز. قاد العملية المقدم الركن عبد الوهاب وبها تغيّر وجه المعركة وأصبح الموقف خطيرا إذ اضطر البيشمركة إلى ترك جبل كورز والانسحاب وراء ديانا وتركوا ناحية بيخال وسفح جبل كورك وانسحبوا إلى بنه كاول وبرزيوه وبهذا عادت الجبهة إلى هندرين وزوزك وكرو عمر آغا ودولي "وادي" آكويان كما كانت في السابق. وفي بيتواته شنَّ النظام هجومًا كبيرًا على جبل ماكوك ودوله رقة وغايته تخفيف الضغط على قواته في راوندوز بتحويل قسم

من البيشمركة إلى تلك المنطقة".

"في يوم ٣٢ أيلول أُسقطت طائرة ميك ١٩ في برزيوه بنيران رشاش وأُسر قائدها الملازم الأول صفاء شلال. عاد الجيش لاحتلال راوندوز والظاهر أنّ النظام يتهيأ لهجوم جديد".

وبعنوان "صواريخ مضادة للطائرات ومدفعية إيرانية" تقول مقدمة التقرير: زاد حجم المعارك وأصبح هدف النظام واضحًا وهو الاستيلاء على مقر القيادة والسيطرة على طريق هاملتون وهو الطريق الذي كانت تأتي منه المساعدات من الخارج عن طريق إيران ومن إيران نفسها وكان الهدف هو قطع هذا الشريان الحيوي. إلاّ أنّ محاولات النظام التمهيدية للسيطرة على جبلي زوزك وهندرين باءت بالفشل. ولكن القصف المدفعي وغارات الطائرات لم تدع للبيشمركة والأهالي راحة. وهنا أظهرت إيران استعدادها لإرسال كتيبة مدفعية عيار ١٣٠ ملم وبطاريتي صواريخ رابيير ضدّ الطائرات".

"في اليوم الثاني من تشرين الأول وصلت هذه المساعدات وليتها لم تأت، تلك حقيقة لا بدّ من قولها ولا سبيل إلى كتمانها فهذه الصواريخ والمدافع وضع البيشمركة كلّ اعتمادهم عليها عندما حلّت ساعة الامتحان رغم عدم جدواها. الطائرات تحلّق عاليًا. والمدفعية

الإيرانية غير دقيقة. وكان النظام قد عقد صفقة مع السوفيت لشراء طائرات توبوليف المتطورة. مع ذلك في ١٤ كانون الأول ١٩٧٤ أصاب أحد صواريخنا طائرة من نوع باجر TU١٦ وسقطت في وادي خوشكا وقتل طاقمها المؤلّف من أربعة أشخاص. في اليوم التالي أصيبت طائرة بقذيفة دوشكا من نوع سوخوي رقم ٧ وسقطت في برزيوه ونجا طيارها. وسبق أنْ أصيبت طائرة من نوع هوكر هنتر فسقطت وقتل طيّارها الملازم هاشم القدّو".

"وتحت عنوان المعارك الأرضية في أيلول وتشرين الأول ١٩٧٤ – يقول التقرير: في ٣ أيلول ١٩٧٤ تقدَّم اللواء الثالث بقيادة العقيد الركن حامد الدليمي تسانده كتيبة دبابات وشنَّ هجومًا على كرو عمر آغا وبعد معركة ضارية استمرت ثماني ساعات أُبيد اللواء بكامله وتخلّفت في ساحة القتال ٢٣٠ جثّةً، ولا يعلم عدد الجرحى وحطّمت أربع دبّابات. توالت الهجمات...".

"وفي أواخر الشهر العاشر أتمَّ العدوُّ احتلال جبلي زوزك وسرتيز إلاّ أنّه لم يتقدّم إلى جبل هندرين وشنَّ البيشمركة هجومًا مقابلاً بقيادة حميد أفندي كان من نتيجته استعادة سرتيز وجعلها مقبرة للواء التاسع والعشرين. أقبل فصل الشتاء و لم يحاول العدوُّ الهجـــوم بسبب سوء الطقس وتساقط الثلوج".

"كانت خطوط البيشمركة الدفاعية تبدأ في هذه الفترة من كرييش ثم سري حسن بك وسري برد واتخذت خطّة عسكرية كان من المقرّر تنفيذها في الشتاء تقضي بهجوم على منطقتي كورك وكورز لتطويق القوات الحكومية في حوض راوندوز، وكان النظام يعلم بما يبيّت فسبق وعقد اتفاقية الجزائر. وحاول خلال ذلك التقدّم إلى جبل ماكوك وشيشار في جبهته فردَّ بهجوم مقابل من قبل البيشمركة".

"وفي منطقة قلعة دزه هاجم البيشمركة مقرّ اللواء في توه سوران في ٣ أيلول ١٩٧٤ وكادوا يستولون على المعسكر كلّه إلاّ أنّهم لم يكملوا الهجوم بسبب استشهاد قائده عز الدين قره محمد فانسحبوا. بالرغم من أن الحكومة ألقت بكامل ثقلها في جبهة بالك إلاّ أنّها لم تحقّق مكاسب عسكرية تذكر، وكان مكسبها الوحيد في حوض راوندوز هو احتلال جبل زوزك، في حين لم تستطع احتلال جبل هندرين حيث إنّ الجبلين يشكلان المدخل إلى بالك. وثمة خمس مراحل أخرى مماثلة لزوزك وهندرين قبل الوصول إلى حاج عمران والحدود الإيرانية وحتى لو تمّ ذلك كان سيضعف الثورة لكنّه لن يعني نهايتها. كان مأزق النظام أكبر بكثير من مأزق الثورة".

-"تقرير جهاز الباراستن إلى القيادة المؤرَّخ في ١٥ تشرين الأوَّل ١٩٧٤- بعنوان: تقرير عام عن الوضع في العراق."[١٠]

---

[١٠] المقدمة وجهة نظر والتقرير رسمي.

١ - الوضع العسكري:

١ - إنّ كثرة الخسائر في صفوف الجيش خلق جوًّا متوتّراً داخل صفوف الحزب الحاكم ويلقي الجيش اللوم على نائب الرئيس حيث يصرِّح ضبّاط الجيش علنًا أنّه يريد التخلّص من الجيش والأكراد ويصرّح قادة الجيش أنّه خدعهم وطمأنهم أنّ القتال سوف لا يدوم أكثر من ثلاثة أشهر وأشاع الحزب الحاكم في صفوف الجيش أنّ انقلابًا شيوعيًا سيحصل في إيران خلال شهر تشرين الثاني المقبل.

٢ - حاول النائب وبذل جهودا كبيرة ليتسلم هو وزارة الدفاع لكن الرئيس أصّر على تولّيه شخصيا ويشاع الآن أنّه ينوي إسناده إلى ابن أخته حميد التكريتي.

٣ - وصلت ملابس شتوية من روسيا من النوع الذي يلبسه الجيش الروسي في المناطق الباردة.

٤ - خطة الجيش الآتية تتلخص في: أ - الاستمرار في الهجوم على بالك. ب: التقدم إلى منطقة جبل حسن بك لقطع الاتصال بين هذه المنطقة والموصل ودهوك. ج: بعد احتلال جبلَي زوزك وهندرين التقدم من برزيوه بالدبّابات نحو الطريق العام. هـ: الاستمرار في الهجوم على منطقة رانيه من سلسلة جبل ماكوك وجبل كيورش حتى

احتلال قرية ورتي، وعند ذلك ستقع منطقة بالك تحت أنظارهم واعتبارا من ديلمان - قسري - كلالة - بيشه - ستكون المنطقة تحت سيطرة العدو ويجب الانتقال إلى شمال الخط المذكور".

٢ - الوضع السياسي:

" أ - يؤكّد قادة الحزب الحاكم على أنّهم أنهَوا الترتيبات اللازمة بالتعاون مع جهات أخرى للقيام بانقلاب عسكري في إيران وموعد الانقلاب هو شهر تشرين الثاني، وفي ١٤ أيلول كان الملحق العسكري العراقي قد عاد إلى بغداد لبحث الموضوع.

ب - إعلان تشكيل المجلس التنفيذي".

٣ - علاقة الحكومة بالحزب الشيوعي:

جيّدة ظاهريًا مع أنّ الحزب الحاكم هو الذي يستغلُّ الشيوعيين وقد فقدوا كثيرا من قواعدهم بسبب هذا الموقف الموالي للنظام ومن جهة أخرى يطارد النظام الشيوعيين الموالين للصّين وقُتل حتى الآن عدد كبير منهم في الوسط والجنوب.

٤ - تحسنت علاقات العراق مع دول الخليج".

"تحت عنوان: النشاط الروسي والمعسكر الاشتراكي في العراق، يقول التقرير:

١ - يلاحظ بشكل واضح ازدياد عدد الخبراء الروس داخل الجيش وكذلك الألمان والجيكوسلوفاكيين بشكل خاص.

٢ - تأكد بشكل لا يقبل الشكّ أنّ الروس أخذوا يشتركون فعليًا في الحرب والحوادث التالية دليل على ذلك: أ - في ٢٠/٨/١٩٧٤ عندما شنّت القوات الحكومية هجوما بالدبابات على كورك وحوض راوندوز كان الخبير الروسي العقيد ألكسندر فاسيليف بالاشتراك مع اللواء إسماعيل تايه النعيمي يشرفان على العملية من كورك. ب - الطيارون الروس يقودون طائرات TU٢٢و SU٢٠ ويشاركون في القصف ومنهم الطيارون التالية أسماؤهم: الرائد كرافجنكو، الرائد يوري، الرائد لونيا، الرائد فولوديا، الرائد فكتور.ج - العميد الطيار نيكولاي فلاديمير يرأس مجموعة من الخبراء الروس في مقر قيادة القوة الجوية العراقية ويشرف على القصف والتنسيق. بالطبع قد لا تكون هذه الاسماء صحيحة ولكن بها يعرف هؤلاء الخبراء.

٣ - عمليات نقل المعدات العسكرية من روسيا إلى العراق مستمرّة وفي تزايد.

٤ - ازداد عدد الخبراء الألمان والجيكوسلوفاكيين وقد وصلت كميات كبيرة من لوريات إيفا وتاترا وناقلات جنود وجسور عسكرية وذخيرة حربية من صنع الدولتين".

التفتُّ إلى بلزاك الصامت كتمثال حجري مطلي باللون الأسمر الفاحم وقلت: "أين وصلت؟" تحرك برخاوة من الوضع المتصلّب الطويل قائلاً: "لم أعثر على شيء". فكّرت أنّ حلم بلزاك اليومي بالمكان والمرأة التي أحبَّها وهرب معها قد استهلك طاقة الحلم و لم يعد لديه ما يحلم به ومن المحتمل أنّه كان يجترُّ أحلامه لأنّها أكثر نقاوة وشفافية وصفاء من الواقع نفسه، الواقع الذي حوّله سيّد الأشباح إلى واقع آخر متخيَّل لا وجود لنا فيه ولكنه متاح للعميد الطيار نيكولاي فلاديمير ولونيا وفكتور ويوري وغيرهم لأنّ هؤلاء يشاركون في صنع المجتمع المتخيَّل الذي يحلم به، مجتمع الوهم، رغم أنّه قال مرَّة لتبرير التنازل من أجل التفرغ لبناء عوالمه المتخيلة: "لم تبق غير قنبلة واحدة من سلاح ثقيل". لم يكن ينقصه السلاح أبدًا ولكن ينقصه الوقت لتأسيس مجتمع الوهم المتخيَّل. بدا أنّ الأسر في حلم أو رواية أو السحل بحصان أفضل من جحيم حقيقي لكنّه هذه المرَّة من صنع مخلوق جريح يعيش على أنقاض قلعة برتو وقصر العاشق.

لأوّل مرّة أرى بلزاك العجوز تالفًا ومحبطًا لأنّ الواقع الذي رآه ليس هو الذي تخيَّله وحلم به طوال سنوات وهو شعور يرافق غالبا كلَّ من يعود من منفى. لكن هل خليفان وطن بلزاك أم قلب امرأة؟ حاولت الكلام معه فلم يجب. ناديته عدَّة مرّات فلم يجب. ناديته باسمه الحقيقي "حوم، حوم" فلم يجب. حرّكته فسقط على الجانب الآخر بلا حراك.

حضنته وأنا أصرخ في الجبال: "مات حوم يا خليفان، يا جبال، يا صخور، يا أيام". لكن أحدًا غير العائلة والريح لم يسمع. الصقور تحلّق عاليًا في الوديان الصخرية الصامتة وبقايا ثلوج الشتاء الماضي لا تزال تلوح فوق القمم البعيدة. مات حوم في مكان حلمه، كما مات رويث الحلو في محطّة القطار وحلم السفر الذي لم يتحقّق. من يستطيع أن يؤجّل موته ويموت في مكان حلمه؟ حمل جسده الذاوي كلّ تلك السنوات كي يموت في المكان الأثير. قذف جسده في قلب الموت كما فعل آشور بانيبال حين قذف جسده في حرائق قصره: حوم أو بلزاك مات بعد أن رأى حلمه مخرَّباً، والملك الآشوري بعد أن رأى واقعه مخرَّباً. الفارق بين موت الغجري حوم والملك هو فارق بين موت حلم حقيقي وموت واقع متخيَّل.

دفنّاه في المكان الذي سقط فيه تحت الصخرة التي عشنا لحظات أو ساعات فوقها ووضعنا فوقه كومة أحجار بدون اسم. ما حاجته إلى الاسم، ميتًا، وقد عاش بلا اسم؟ فوق الصخرة كنا نمارس حلمين: هو يحلم بحبٍّ قديم وأنا أحلم بحرب قديمة: كنت أشعر بخسارة واقع، لا خسارة حرب، وفقدان أيِّ أمل في الواقع المتخيَّل لسيّد الأشباح الحقيقية. شعرت أكثر من أيٍّ وقت مضى أنّ لحظة سرد الحكايات قد انفتحت على بعد آخر.

كان بلزاك العجوز في سرديات التبغ يمثّل القارئ في الحكاية وأحيانًا يمثّل الحكاية نفسها لقارئ هو أنا: كنّا نتبادل الأدوار بين القارئ والحكاية وكانت لحظة الموت تنفتح لا على نهاية الحكاية بل على بداية أخرى، قد تبدأ مع حسين مردان الذي كان في سنوات الحرب تلك يقف على الطرف الآخر من الجبهة، من الجبل، من الصخور، من الواقع، من موت محتمل، وكنّا نرى بعضنا عبر منظار بندقية: كلانا انتهينا في شاحنة واحدة، بلا مكان، ولا مترل، ولا ضوء ولا دفء ولا ربح أو خسارة "ماذا أخذ الرابح؟".

تساوينا في مصير مشترك كما في شاحنة مشتركة ولم يبق لدينا غير الحكي: نحكي حكاية واحدة من طرفين وموقعين مختلفين. انتهينا من سرديَّات التِّبغ حول الحبِّ والتاريخ لندخل في سرديَّات الحرب. من الحبِّ إلى التاريخ مع بلزاك ومن الحبِّ والتاريخ إلى الحرب مع كوران.

هنا لا يحضر التاريخ البعيد كما في الطريق الطويل من الجنوب إلى نينوى بل يحضر الموت، قتلاً، والتقاطع ليس حادًّا وصارما بين الموت والحبِّ والتاريخ. ربما ينفتح السَّرد على عالم بياتريس المغلق أو مديحة صالح أو مزاهر وفالح ومن يدري قد يكون لدى الطفلَيْن حكاية ستروى في يوم ما لكي تستمرَّ ــ دون أن تكتمل ــ رحلة النفي والطّرد والحبِّ والتاريخ والحرب والبحث عن مكان آمن لثلاثة

أجيال هائمة حتى نعيش تحوّلات نيتشة الثلاثة حسب جيل دولوز: الجمل والأسد والطفل.

جلست إلى جانب حسين مردان وكنّا قد غادرنا خليفان ولم أنظر إلى الخلف وشعرت أنّ مكان بلزاك في الشاحنة لا يزال حارًّا وحيًّا وحاضرًا، وكان حسين صامتًا أوّل الأمر ولكنّنا ما إنْ دخلنا بوابة كلي علي بيك وبرزت الصخور الحادة الناتئة في الأفق لجبلَي نواخين وكورك، حتى سمعته يقول وهو يشير بأصبعه نحو قمة عالية تحوم فوقها الصقور:

"كنت هناك على سفوح كورك يوم دخلتم إلى هنا". كان يتحدث عن معارك طاحنة دارت في هذا المكان عام ١٩٧٤ في الربيع والصيف بعد ذوبان الثلوج من أجل اختراق المضيق والوصول إلى سهل ديانا.

قلت: "حشرنا العميد الركن طه الشكرجي قائد فرقة المشاة الثامنة وآمر اللواء الثالث العقيد الركن حامد الدليمي في هذا المضيق أو الجحيم وكانت خسائرنا فادحة، بعده جاء العقيد الركن شاكر وجر الإمارة وكان أفضل لكن بعد فوات الأوان. طه الشكرجي هو المقدَّم الركن الذي اتصل به الزعيم عبد الكريم قاسم صبيحة انقلاب الثامن من شباط ١٩٦٣ طالبًا منه تهيئة اللواء التاسع عشر لصدِّ الانقلابيين فردَّ عليه في الهاتف بصفاقة كلبيّة من ثكنته في معسكر الرشيد: "إنجب" أي اخرس. كان واجب الشكرجي هو فتح طريق

اربيل، صلاح الدين، شقلاوة، سبيلك، كلي علي بيك، راوندوز، كلالة، حاج عمران، لكنَّه توقَّف عند جبل كورك بعد أن زجَّنا في مجزرة متهوِّرة بلا أدنى حساب للحياة. عشت ثلاثة أيام وحدي على علب أرزاق طوارئ الموتى وأنام قربهم وأسمع عزف موسيقى ساعة أحدهم الإلكترونية وهي تعزف موسيقى عيد الميلاد: سنة حلوة يا جميل".

وتابعتُ: ماذا كنت تفعل خلف الصخور؟

قال حسين مبتسمًا: "كنتُ قنَّاصًا".

- ماذا تقنص؟

ضحك بهدوء قائلاً: ماذا اقنص؟ العصافير. نزول الدبابات من كورك نحو عين بيخال بتلك الحيلة الماهرة جعلنا ننسحب إلى سهل ديانا وجبال زوزك وهندرين.

قلت: سرية دبابات خفيفة من نوع بي تي أر ٧٦ أول من صعد جبل كورك بقيادة الملازم الاوَّل برجس سليمان وكانت عملية نوعية من ناحية تقنية في التاريخ العسكري فلأول مرة تصعد دبابات فوق جبل بهجوم التفافي صاعق ومباغت، ثم تابعناكم في جحوركم - ابتسم - وفي نهاية تشرين الأول ١٩٧٤ سيطرنا على جبال زوزك وسرتيز وتوقَّف الهجوم عند هندرين لوعورة الجبل وقدوم فصل الشتاء ونزول الثلوج. أين كنت تلك اللحظة؟

قال كوران: - كنّا نجهز خطة للهجوم على جبال كورك وكورز لمحاصرتكم في حوض راوندوز ولكنّنا توقّفنا.

قلت متهكما: بسبب الشفقة؟

- لا، أنت تعرف. بسبب اتفاقية الجزائر.

قلت: - يعترف جنرال الموساد الإسرائيلي اليعازير تسافرير أنّه غادر مقرّه الدائم في ديانا إلى إيران بعد ذلك الهجوم و لم يكن يعرف بوجوده هناك سوى نفر في قيادة الحركة كما يقول، فأين ذهبت أنت؟

- كنّا في قرية برسرين عند سفوح هندرين حين صدرت أوامر الانسحاب إلى أعماق الجبال ثم كلالة وقصرين وجومان. كنّا نحاول احتواء ما حدث لكن بلا جدوى.

قلت: دخلنا من مضيق برسرين يقود إلى حاج عمران وكنتم ما زلتم تقاتلون، رغم أنّ الربيع قد حلّ، من مكان إلى مكان، حتى وصلنا إلى جبل السلام أو ما يعرف بهذا الاسم على الجانب الأيسر من الطريق الذاهب إلى جومان وهناك عثرتُ، بعد المشي لمدّة نصف ساعة تقريبًا في طريق فرعي جبلي وعر، على مقرٍّ القيادة المركزية للحزب الشيوعي المتروك ووجدت جريدته وبعض الأوراق والرسائل الشخصية المرميَّة فوق وتحت الثلج والطين وعنوان عريض لعدد قديم من الجريدة يصف تأميم النفط بـــ(المؤامرة) ويقول التعليق: ما الفارق بين أن يكون النفط بيد سلطة برجوازية وبين شركات

رأسمالية؟ من الشارع العام المؤدّي إلى كلالة سلّم صالح اليوسفي نفسه – عضو المكتب السياسي للحزب الديمقراطي الكردستاني ومؤسّس منظّمة بروسك، الصاعقة عام ١٩٣٦. سيُقتل فيما بعد في الخامس والعشرين من حزيران في بغداد عام ١٩٨١ بطرد ملغوم – وكان يرتدي معطفا أسود وقبعة سوداء، في اللحظة التي كنت فيها أنفض المعطف العسكري من العقارب الليلية التي تزورنا أسرابًا بألوان مختلفة ونضطر إلى لفّ أجسادنا بالبطانيات. كنّا نسأل من تحت الدثار: هل من عقرب؟ يقول لك الآخر: ثلاث، خمس، تسع... الخ. في أجواء انهيار الحركة بعد الاتفاقية قام اللواء الثامن والثالث مع وحدات أخرى بهجوم سريع نحو كلالة وعثرنا على بعض القتلى في السجون وقيل إنّهم طياروا قتلوا في آخر لحظة رميًا بالرصاص في الأسر. بعد الخطاب الأخير عن الخيبة فَجّرتم الإذاعة. صح؟

قال وقد توقف للسماح بمرور شاحنة عسكرية لضيق الممرّ: تمّ تدمير الإذاعة في جومان ثم انسحبنا عبر الجسر إلى رايات وحاج عمران وقسم كبير تفرق في الجبال.

– جسر جومان؟ في ما بعد وحتى عام ١٩٧٧ أقف بعد منتصف الليل حارسًا على الجسر والثلج يتساقط وأكاد أتجمد من البرد.

قال: كنّا نعرف ذلك. إلى جانب الجسر كان فرن الخبز وكنتم تقضون أوقات الحراسة أحيانًا فيه للدفء.

قلت منذهلاً: وتعرف؟ كنت أجلس فيه حتى أنام ومرّة أيقظني خبّاز من النوم ووجدت البندقية على الأرض. هل كنت في الحركة قبل ذلك الوقت؟

قال: التحقت عام ١٩٦١ وكان عمري ستة عشر عامًا. كانت أوّل معركة لي في آيار ١٩٦٢ وكان مقرّ القيادة في منطقة بالك لأهميتها ووقوعها بين جبلَي زوزك وهندرين وهي من الجبال الوعرة والعالية وكذلك قربها من طريق هاملتون الاستراتيجي، وهذه الجبهة كانت بقيادة العقيد الركن عزيز عقراوي، وكانت كلالة هي المركز الرئيس، وفي ٢٨ أيّار ١٩٦٢ وصلنا منطقة جبل سري بري في سدي كان، ودخلنا معركة في قمّة سري مع الجيش والجاش – قوات شبه نظامية كردية موالية للحكومة – ودخلنا قرية بيشه ومضينا إلى جسر برسرين وأحكمنا السيطرة على وادي دولباليز. وفي برسرين لحقت بنا قوات محمود كاوني، وفي بالك كان ينتظرنا عمر مصطفى دبابة وبقية شيوخ العشائر وكانت قرى بيشوك وزينوه ترحّب بنا وكان معنا البارزاني الأب الذي قال لي ونحن نعبر جسر برسرين: "لم أكن أتصور أنك ستتجاوز كلّ هذه الأهوال".

أضاف حسين وهو يمصّ سيجارته بقوة: "سيطرنا على المثلّث الحدودي بين تركيا وإيران والعراق المعروف بمثلث: جبل دالانبر

وكيله شين. كنّا نهيم في الجبال ولا نتوقف في مكان إلاّ قليلاً وحسب الظروف وهذه هي حرب العصابات".

قلت – كما نفعل الآن في الشاحنة؟

ضحك حسين مردان لكنَّه سكت فجأة قائلاً: ليس الوقت مناسبًا للضحك فقبل نصف ساعة دفنَّا الرجل في خليفان. هل تعرف العقيد قتيبة الشيخ؟

– المعتوه؟ عملنا بإمرته قرب كلالة كضيوف لمدة شهر حوّله إلى جحيم. تزوَّج كردية من كلالة بموافقة الأهل ورفض العشيرة. هل تقصده؟

– نعم.كان ذلك عام ١٩٧٦، أي قبل ثلاث سنوات، فقرَّرنا الانتقام منه.

صرختُ بغضب: الانتقام منه؟ بل انتقمتم منّا وقتلتم جميع جنود شاحنة التبضع إلى رواندوز من خلال كمين بإلقاء صخرة كبيرة على مقدمة الشاحنة العسكرية (الايفا) ثم صفَّيتم الأحياء بالرصاص إلاّ واحدًا اختبأ تحت الشاحنة وأطلق على أحدكم النار وأصابه وشاركت في نقل الجثث بنفسي.

قال حسين وهو يراقب ظلال المضيق المنهمرة على مقدمة الشاحنة والمياه المتساقطة والمنعطفات الوعرة: "نعم. سمعت بهذا الحادث وكان مؤذيًا، لذلك نحن الآن في شاحنة واحدة".

صمتٌ حجري حال بيننا كما لو أننا عدنا ننظر إلى بعض عبر منظار بندقية: عبر هذا المنظار الصغير والواسع والضيِّق لا يمكن أن يرى أحدنا الآخر إلا كعدو، والمنظار يبيح الحذف كما يبيح الهدر، وهذا "المنظار" قد لا يكون مركّبًا على فوهة بندقية بل على بنية مقاييس ومنظومة أفكار وتصورات وهمية لا ترى الآخر إلاّ فريسة صيد.

قطعت الصمت قائلاً: على طريق رايات وبعد الخروج من جومان بنحو خمس دقائق على الجهة اليمنى هناك فندق سياحي دفنتُ تحت سياجه ديوان شعر لإيلوار في علبة صفيح بأمل أن أعود يومًا وقد تغيَّرت الأوضاع. حين دخلنا بلدة رايات عام ١٩٧٥ وجدنا سجنا على الجهة اليسرى من الطريق وأسرى مقتولين قبل الانسحاب الأخير.

ـــ نعم. حدث الأمر نفسه في سجن كلالة حيث أعدم في اللحظات الأخيرة بعض الأسرى والمعارضين أيضا من الحركة.

قلت: ـــ رأيت الجثث بنفسي وهذا محزن. أنت تستحق قيادة هيز مسلح على صدر بياتريس.

ضحك بخفوت، مسرورا.

خيَّم صمت ثقيل مرَّة أخرى كالصخور الرمادية وصمت أشجار السرو والبلوط وظلال الجبال، وحين خرجنا من ظلال المضيق

وجباله الصخرية المهيمنة وطريقه الوعر والضيق، انفتح، كما يحدث في نص، أو حين ترفع ستارة في غرفة معتمة على نافذة مطلّة على سهل مفتوح ومضيء وأخضر، سهل ديانا وبدا في الأفق جبل زوزك الذي قاتلت فوقه قبل سنوات، بل كنت أستعيد، في هذا النهار المشرق، صرخات تلك الليالي الموحشة داخل عواصف ثلجية عاتية جالبة معها انفجارات المدافع ورائحة الدخان وتطاير الأشجار والصخور والشظايا والوحول.

اليوم أعود إلى الأمكنة نفسها التي تركتها قبل بضعة أيام، تركتها كجندي في نهاية سنوات الهلاك والحرب، وأعود إليها اليوم، هاربًا، لكي أتساوى في الموقف مع من كنت معهم في حالة حرب، عدت مع كوران الذي كان يقاتل على الجانب الآخر من الجبل وهو الآخر عاد عودة غريبة: عاد كمتسلّل، وسنظلُّ نتذكّر عذابات الحرب والثلج والوحل والدخان وهدير صخور جسر جومان في الليل، وربما سأتذكر أكثر رواية (جسر على نهر درينا) لسنوات قادمة لأنَّ ذاك الجسر يربط بين ضفتي القلب وهو على وشك السقوط.[11]

قلت: "هل تعرف أين تريد العائلة أن تذهب؟"

[11] رواية: جسر على نهر درينا للروائي ايفو ا ندريتش

– أعرف. في سهل ديانا عندهم أقارب لكنني لا أعرف المكان بالضبط ولكننا سنعثر عليهم في النهاية. يمكن الذهاب إلى الكنيسة والسؤال هناك.

قلت: كنيسة؟ كاولية تسأل في كنيسة؟

ضحك حسين: وهل تريد أن نسأل ثكنة عسكرية؟ توجد كنيسة ماركيوركيس في ديانا وغالبية الناس هنا من المسيحيين وأعرف راعيها الأب يترون يونان داود. لكنَّنا لن نحتاج لذلك كما أظنّ. هل تنادي فالح أو مزاهر فربما يعرفان المكان؟ .

ناديت من خلف النافذة، فجاء جواب فالح حوم: "يقع المترل في الطريق المؤدية إلى ميركه سور في السهل خارج ديانا قليلا".

قبل حلول المساء كنّا نحضر حفلاً مرتجلاً في العراء أقامه الأقارب، وكنت متعبًا جدًا وأشعر بحاجة إلى نوم عميق، لكنَّ المكان وقمم جبال هندرين وكورك ونواخين وزوزك والعشب النامي كالدغل ونتفًا من ثلوج الشتاء الماضي فوق قمم بعيدة والسهل والنور الفيِّ الهادئ المنبثق من الصخور والأشجار والصمت والحفل المرتجل وموقع راجمات الصواريخ – الكاتيوشا – القديم أيَّام الحرب عند باب كلي علي بيك التي كانت تبرق في الليل فتكشف بوَّابة المضيق بوهج أحمر، ومنظر الكنيسة في الضوء الطري المسالم والحقول المترامية الخضراء، كلّ ذلك جعل النوم أمرًا صعبًا وكان يجب استيعاب كلّ شيء بسرعة.

جاءت لحظة السؤال عن بلزاك العجوز أو حوم وتولّى حسين باللغة الكردية توضيح الأمر ما أعفانا جميعًا من مشقّة طريقة تقديم الخبر، ولكن ردّ الفعل لا يحتاج إلى لغة: ظلّوا مطرقين بضع لحظات بين الصمت والنشيج. بلزاك أو حوم يمثّل الجذر الأخير لهذه السلالة والجسر الواصل بين ماضيها وحاضرها. كان المرجع العائلي لعرق يقدس السلالة والدم والقرابة والمؤرخ الوحيد لتاريخ الأسرة المنتشرة في أمكنة كثيرة وكان راوي الحكايات الباقي من زمن العربات الجوّالة والطوّاعين والأتراك والإنكليز والملوك والفيضانات والقلاع والمستوطنات الغجرية، الذي عاش ومات ودفن في مكان الحلم أو حلم المكان.

كان صورة مجسّمة لنا رغم أنّنا نميل إلى تسطيح الإنسان ونفرض عليه شكلاً واحدًا ونبني الحواجز بين القديس والمجرم، بين المحارب والعاشق، بين اللص والشهيد، مع أن الإنسان يوجد في الثقوب الرمادية المتروية: ليس في تماسكه المظهري ولكن في تحولاته العميقة من الجمل إلى الأسد إلى الطفل أو بالعكس.

كان المترل جاهزا على الطريقة المألوفة: بين السياج الصخري والكباري والخيم والأشجار والأحجار، وكان منظره في السهل جذّابا أو هكذا بدا لي في عزلته وبساطته والدغل المتراكم حوله وبضعة خيول تركض في السهل المترامي حول جدران الكنيسة

الحجرية والطيران المنتشي للطيور واللمعان البلّوري المنبعث من القمم الجبلية الشاهقة، وكنت أنظر نحو جبل زوزك بصورة خاصة وأحاول تخيّل مكان عين الماء الحارة حتى في الشتاء الجليدي القارص، وتمدّدت على سرير خشبي في غرفة نظيفة معدَّة لشخصين وكان حسين مردان قد نام قبل دقائق.

أزحت ستارة وردية شفَّافة مطرَّزة بالعصافير والفراشات تغطي نافذة صغيرة. كانت تلوح في الأفق قمّة جبل هندرين مكسوّة ببريق غسق مسائي فاتن ودخلت في نعاس لذيذ كما يدخل طائر متعب في عشّه الليلي، كما دخل بلزاك في حلمه الأخير، وكما دخل النور الغسقي في أدغال زوزك المشرقة بالضوء وأشجار البلوط والصنوبر والسرو والسر.

كنت أستلقي على سرير خشبي قديم منهكًا وأنا أحلم بالمتزل والموقد وجدران بابل والأسود الآشورية وحملة جوليان ومعارك كورك ومذبحة المضيق وقلعة برتو والشاحنة وثلوج سنوات الحريق وقائمة هائلة من الخسارات كصيّاد همنغواي العجوز الذي عاد من رحلة صيد خائبة جارًّا سمكة كبيرة مزّقتها أسماك القرش ويستلقي مرهقا ومغطى بأوراق الصحف في كوخ منعزل لا يسمع منه غير صخب البحر.

الفصل الأخير

حقول الفراولة

لم يكن جبل زوزك مشرقًا بالضوء والأشجار يوم وصلنا في تشرين أول عام ١٩٧٤ بعد قتال مرير من صخرة إلى شجرة بل كانت الطرق موحلة والأشجار تنفث رائحة الموت والدخان والحرائق في كلّ مكان والمدافع تُدوّي في الليل والنهار من الطرفين وقاذفات الصواريخ تترك في الليل وميضًا حادًّا فوق جبال كورك وهندرين وزوزك ونواخين وفي عيون الجنود المرهقة وفي الحقول المخرَّبة والبيوت المهجورة في ديانا المدمَّرة التي تحوَّلت أبوابها ونوافذها وسقوفها وأشجارها إلى شواهد ترتفع في الهواء كما لو ضُربت بزلزال.

صارت خطوط الجبهة في ذلك العام هي: جبل زوزك، جبل هندرين، كرو عمر، ومن خلف الجبال الشاهقة كانت المدفعية الإيرانية من عيار ١٣٠ ملم تقصف بعنف مدخل مضيق كلي علي بيك والشارع المؤدي منه إلى ديانا ومراكز القيادة وتجمعات الجنود.

كان مقرُّنا في مسجد على حافة وادٍ في نهايته خزّان مياه عمومي بدت عليه آثار الشظايا في كلِّ مكان، كما لو أنَّه تحوَّل إلى غربال، وكانت السيارات المارَّة من أمام المقرِّ عند النزول إلى الوادي ثم الصعود تطلق أنوارها الكشّافة في الليل ما يضاعف من القصف الذي يقع علينا إلى حدٍّ كبير، لذلك تسمع صرخات الجنود الشاتمة في الليل لسائقي السيارات بكل قواميس البذاءة وهو أمر يحدث غالبًا في كلِّ الحروب حين تتحطَّم اللغة بعد تحطم اليقين بكل شيء. الحرب لا تحطّم الأشياء فحسب بل اللغة.

كانت غرفتنا الملحقة بالمقرِّ والمجاورة له تحتوي على مدفأة جبلية وهي عبارة عن برميل يرتفع منه أنبوب معدني إلى السقف لتفريغ الدخان، وكانت دافئة طوال الوقت وكنَّا نجلب الحطب من حطام منازل ديانا ونوافذها وأسِرَّتها الخشبية من دون أي إدراك للأحلام الإنسانية التي جرت فوقها، وفي بعض الأحوال من أشجار البلوط والصنوبر بعد تركه يجفُّ فترة طويلة أو من الفحم الذي كانوا يزودوننا به في موسم الشتاء، وكانت مهمة جلب الحطب محفوفة بالمخاطر بسبب القصف المدفعي عبر الجبال، المركّز أحيانًا، ولست أدري هل كان جنرال الموساد الإسرائيلي اليعازير تسافرير قد ترك خلفه بعض الأفراد أم أنَّ الرؤية تتمُّ عبر جبل هندرين الذي كان من الناحية العملية خارج سيطرة الجيش ومطلاً على سهل ديانا. حاصرتنا القنابل داخل خرائب المنازل، يومًا، بحثًا عن الحطب وصار

الرمي يقترب أكثر فأكثر حتى أنني ضحكت، في الذعر والترقب، من دهشة العصافير وخرسها من تطاير الأحجار والأخشاب والشظايا حولنا.

في نوبة حراسة في الليل وبعد صمت عميق لا أسمع فيه غير هدير العجلات المارَّة البعيدة، انفجرت قنبلة بالقرب منّي ببضعة أمتار وسطع ضوء الانفجار في وجهي وسمعت أزيز الشظايا يضرب كلّ شيء حولي وشممت رائحة دخانها وأحسست بموت وشيك وتصوَّرت أنَّها مزَّقت جسدي وقد لا أشعر بذلك حالاً ولكن بعد وقت يأتي الموت وكنت أنتظره ودخلت، مندفعًا، بلا استئذان إلى غرفة الآمر الذي كان يجلس على فراش وثير وبالقرب منه مدفأة مشتعلة يبدو من لهبها وجهه متورّدًا، ولاحظت زجاجة خمر على مائدة خشبية وكلّ ما يمكن أن يحلم به فرد على ظهر الكوكب ومع الوقت وزوال مشاعر الخطر وحلول مشاعر الخجل، نظرت إلى الأسفل فرأيت جنديَّ الخدمة - المراسل - جالسًا عند قدميه وكان هو نفسه عاري القدمين وكان من الواضح جدًّا أنَّهما مصبوغتان بالحناء وكان يجلس بالقرب من المدفأة متوهّج الوجه. صرخ بي الضابط: "كيف تدخل يا حيوان؟".

" اعتقدت أنّني جرحت وأحتاج إلى ضوء".

كان يبدو عليه الذعر، ومن المحتمل أنّه تصوَّر أنَّ مداهمة قد حدثت مع دويِّ الانفجار، وقبل أن يستردَّ أنفاسه من هذه المفاجأة زعق مرة أخرى: "اخرجْ حالاً. سأنظر في أمرك غدا". لم أرجع إلى نقطة الحراسة المكشوفة وخفت من تكرار القصف بل اختبأت في غرفة غسل الموتى في المسجد وكنت أعرف أنَّها غير محصَّنة ولكن مكان غسل الموتى في الغرفة عبارة عن حفرة مطلية بالإسمنت بحجم إنسان ومحاطة بعلوٍّ صغير من الإسمنت من الجانبين وهو مكان نموذجي للاحتماء ويكون على شكل خندق شقي وحين تمددت فيه على وجهي، فوجئت بصورة شبح تحتي فأصابني ذعر غريب وقشعريرة شديدة واحتجت إلى بعض الوقت لكي أعرف أنَّ الحفرة مملوءة بماء المطر الناز من السقف وذلك الشبح هو وجهي، و لم أعد إلى المكان بعد ذلك أبدًا. أمَّا الضابط فقد نسي الأمر في غمرة لياليه الباذخة وأخبار الحرب.

كنَّا في بداية شتاء عام ١٩٧٥ ننتظر موسم ذوبان الثلوج لكي يبدأ الهجوم الكبير من زوزك وديانا نحو كلالة وقسرين وجومان عبر مضيق طويل لقطع طريق هاملتون وكان الضجر والتذمُّر بين الجنود واضحًا والشتائم المختلسة مستمرة ضدّ الحرب، حتى كان على من يظهر موافقة صريحة على الحرب أن يتحمَّل السخط أو التوجُّس لأنَّ عيون المخبرين في كل مكان - دائما في كل مكان وحتى في اللامكان، وفي الحلم أيضًا - ولكن السيطرة على جنود منتشرين

على قمم وسفوح الجبال وفي ملاجئ حجرية ومدفونين تحت الصخور والثلوج والترقُّب والقصف والقمل والعقارب والأشواق الإنسانية الغريزية المتعفِّنة من جرّاء الانتظار يجعل الأمر في غاية الصعوبة.

كنّا نشاهد على الطرق أو في المعارك مجاميع مسلّحة من الحزب الشيوعي العراقي. كان هذا مثيرًا لحيرة الجنود الذين يحلمون بنهاية عاجلة للحرب. كان آمر وحدتنا قد حوّل المسجد إلى مقرٍّ عسكري له وإلى منزل شخصي وحانة وماخور أيضا. في نوبات الحراسة كان يخرج مخمورا في أوقات الهدوء النسبي منتصف الليل لكي يسأل بلسان رخو عن الأوضاع وإطلاق بضع نكات سمجة تبرِّر أوقات الاختباء الطويلة في الغرفة المحصنة تحصينا إضافيًا بقطع من الحديد لمقاومة القنابل ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل كان الجنود الصغار الجدد والذين ترسلهم مراكز التدريب للتعويض عن الخسائر يتحولون نتيجة الخوف من الموت والقصف والثلج إلى أدوات للمتعة الجنسية، وكان ذلك مُهينًا وأسوأ من الحرب ذاتها.

حاول ثلاثة جنود - كنت واحدًا منهم - إبلاغ مقرّ اللواء عن هذا الوضع المخزي، وبعد التحقيق مع الآمر صدرت أوامر بنقلنا إلى سرية بغال أربيل كعقاب لأنَّ العمل في سرايا البغال غالبا ما يكون لهدف تحقيري، ومفهوم "غير المرغوب فيهم" يشمل منظومة واسعة

من الأسباب منها السياسي والشخصي لكن ليس من بينها أي سبب عسكري، وقد تدخل، في آخر لحظة، أحد الضباط وأُلغي النقل إلى سرية البغال، وقد انتحر هذا الضابط بعد نهاية الحرب بأسبوع بإطلاق النار على رأسه من دون "تفسير".

حتى موعد قدوم الربيع كنّا ننتظر الهجوم الكبير والمرتقب وهو أسوأ من الهجوم نفسه. كان سهل ديانا ينفتح على عدة طرق رئيسة: طريق هاملتون الإستراتيجي، ومنه إلى كلالة المعقل الأول للحركة ومحاط من اليمين بجبل هندرين ومن اليسار بجبل زوزك وسلسلة جبلية وعرة ترافقه حتى الحدود الإيرانيّة وإلى حاج عمران، وآخر إلى ميركه سور على الحدود التركية، والثالث إلى سدي كان ومجاور للحدود الإيرانية والرابع إلى الخلف عبر بوّابة مضيق كلي علي بيك وهو طريق الإمدادات الرئيس للجيش ويتعرّض إلى قصف مستمر من خلف الجبال، وفي بوّابة المضيق كانت راجمات الصواريخ ترمي في الليل محدثة دويًّا وموجات يتردَّد صداها المدوي في الجبال ويترك أثرًا غير مريح ولم تكن الطائرات تظهر إلاّ نادرًا بسبب الطقس الغائم والماطر والمثلج ولم نكن نعرف يومذاك عن دور وفعالية بطاريتي مقاومة الطائرات الإيرانية رابيير ولكن القصف المدفعي كان مؤثّرًا وبصورة خاصَّة في نفوس الجنود الجدد المعرَّضين إلى قصف من نوع آخر أكثر قدرة على التدمير.

مع ظهور زهور الهندباء البريَّة الصفراء بدت طلائع الربيع في الظهور وعبق الهواء برائحة أزهار النرجس والحبق والأعشاب البرية وكانت رائحة دخان القنابل المنفجرة تتنافر مع رائحة الأرض الحيَّة المعطرة بتراب مبلَّل وكذلك الحفر الناجمة عن ذلك وسط حقول تتفتَّح بين الحفر والألغام والعجلات المحطَّمة والخنادق والأشجار العارية في ربيع فاتن بسبب القنابل أو المواقد أو لسطوح الخنادق. مع فوران الزهور والأعشاب ونموّ البراعم وخضرة الأشجار ظهرت جثث معارك زوزك للعام الماضي محفوظة في الثلج، وتعرفنا على جثَّة الملازم مهدي والملازم فهد – كانت زوجة أحدهما تنتظر أسفل الجبل إنزال الجثة وهو أمر غير مألوف في ساحة حرب ما سبّب كآبة إضافية.

كانت منازل بلدة ديانا تبدو في الربيع كبقايا مكان أثري يبزغ بين الأنقاض والخرائب والأعمدة الشاخصة والأشجار المحطَّمة والأبواب المخلوعة والأحجار المرميَّة المتناثرة. رغم ذلك كنَّا نحصل على خمر أو نبيذ محلي من الجنود العائدين من الإجازات أو من سائقي الشاحنات العسكرية في ذهابهم وإيابهم من وإلى أربيل أو المدن الواقعة على الطريق. صار سوق الخمر السري منظَّمًا تنظيمًا صارمًا ودقيقًا وعادة ما تتمُّ (الحفلات الملكية) بعد منتصف الليل في القمم الشاهقة أو في الملاجئ البعيدة وفي نقاط الحراسة عند سقوط الثلج رغم دوريات الاستخبارات (وهي حرب أخرى) وعندها

يتحول مشهد السهل والجبل والبرق والدويّ المدفعي ووميض القنابل والأشجار والخرائب إلى مشهد بشري يمكن احتماله بصورة مؤقّتة، وتكون لحظة الانتشاء، على ضوء الشموع وظلال الجدران ولهب المدفأة، ممزوجة بشعور داخلي بالنجاة، ويحرم الحديث عن الحرب الدائرة أمامنا حتى وسط دوي المدافع وصداها المتردّد عبر الجبال في الليل كمحاولة لخلق سلام متخيَّل.

كانت هناك معارك تدور في أمكنة بعيدة، ويلوح ذلك من اشتداد القصف المدفعي المتبادل في بعض الليالي الثلجية ولكنَّها كانت معارك صغيرة لأنَّ الثلوج تعرقل تقدم القطعات والعجلات والدبَّابات والمشاة أيضًا ولكنَّ ذلك الدوي البعيد لا يجعلنا ننام بصورة طيّبة ويسلمنا إلى كوابيس مرتجلة عن الهجوم القادم الكبير.

كنّا في أوائل آذار في حالة تأهّب قصوى استعدادًا للهجوم الواسع المنتظر وكانت الإجازات قد أغلقت وعجلات الوقود كاملة التجهيز وعتاد المعركة موزّعًا وكذلك أرزاق الطوارئ وضمادات الميدان وعربات الإسعاف في المقرّ الخلفي متأهّبة والكلُّ يتطلَّع إلى لحظة توقُّف الثلج والجوّ المشرق، وأزيلت من الطرق الآليّات المدمّرة لكي لا تترك أثرًا سلبيًا لدى الجنود، وبدا الجوُّ مشحونًا برائحة موت وشيك ويتطلب الهجوم الدخول في عمق ٦٩ كلم من ديانا إلى حاج عمران الواقعة شرق جبال حصاروست، بين أوعر الجبال والمضائق.

فجأة، في أعماق الليل والصمت، لعلع الرصاص في كلّ مكان قبل أيِّ إعلان عن بداية الهجوم، وأضيئت خرائب ديانا بالمشاعل والطلقات، وكانت الجبال والصخور والأشجار والطرق والغابات والنجوم والسماء والأنقاض تنضح رصاصًا في كلّ مكان حتى بدا الجوُّ مشبعًا برائحة الرصاص وكنت لحظتها في نوبة حراسة قرب منحدر الطريق و لم أكن أفهم ما يدور وسمعت حوارا ضاحكا يدور بين جنود قريبين عن نهاية الحرب وعن اتفاق جرى في الجزائر وعن عفو رئاسي ينتهي في أوائل نيسان - كنّا في ليلة ٦ آذار ١٩٧٥ - لتسليم السلاح.

بعد هذا الرمي الاحتفالي المكثّف جاءت أوامر فورية بوقف الرمي وتسجيل أسماء المخالفين. ليست وظيفة الجنود إعلان نهاية حرب ولا بدايتها، ولكنهم وقودها وعلفها فحسب، وهذا الفرح العفوي المبتهج بنهاية وشيكة للحرب دون معرفة من المنتصر ومن المهزوم كان يُنظر إليه كتمرّد وإعلان سأم من حرب وليس استعراض نصر لا يعني شيئًا للجنود أكثر من حساء وسرير نظيف وضوء هادئ ويقظة هانئة وشاي يشرب في الصباح بكل طمأنينة.

في الصباح وعكس كلّ ما هو متوقّع - رغم قرار العفو - اندفعنا في هجوم سريع عبر ممرٍّ مجاور لقرية برسرين من سهل ديانا يؤدي إلى كلالة وجومان وحاج عمران آخر المعاقل الحصينة. في

طريقنا كنّا نشاهد حرائق وعجلات وأرتال جنود متقدّمين بكلّ معدّاتهم، وكان المطر قد بدأ في الانهمار والثلوج باقية من الشتاء الماضي وقد غُطّيت الطرق بالوحول والأرتال وبدا الجميع في ضباب الصباح والدخان والحرائق كأشباح تائهة في الجبال.

"ولكن لماذا؟" كنّا نسائل بعضنا لأن السؤال بـــ " لماذا؟" ممنوع كالفرح بنهاية الحرب على أيّة صورة.

"من أجل الصدمة واستثمار حالة الانهيار" كان الجواب.

كانت هناك مقاومة في بعض الجبال ولكنها ضعيفة وبلا غطاء مدفعي إيراني، وقرب كلالة كان مقرُّنا الجديد في المساء في حين بدا طريق هاملتون على صورة أخرى حيث مرور العجلات الهادئ ووجوه الجنود رغم الإنهاك والشتاء الطويل والثلج والانتظار مستبشرة. في الصباح كنّا في بلدة جومان. في الليل كانت حراستي هذه المرَّة فوق جسر جومان المقام على جرف صخري ومياه متدفّقة صاخبة تحت ثلج شرع في الهطول وكان فرن الخبز دافئًا وأليفًا وأذكر أنّي نمت فيه مرّةً مُنهكًا.

من فوق جسر جومان المطلّ على البلدة ببعض نوافذها المضاءة في الليل – كثير من النوافذ معتمة – كنت أشكُّ في أنَّ هذه الحرب قد انتهت: من صمت الناس ومرورهم الخفي وعودة الكمائن الليلية ومن صخب مياه الجسر وهي تحمل ليس ثلوج العام الماضي الذائبة

وأوراق الأشجار والجذوع فحسب بل كانت تحمل أكثر من علامة ونبوءة بأنّ "الرابح في هذه الحرب لا يأخذ شيئًا".

تحت سفوح جبال قنديل القريبة من جبل سكران في جومان تعرّفت على العجوز العمّة درخشان – معناه قطر الندى – خلال مروري اليومي في النزول والصعود إلى الرابية وكنت أحمل لها بعض الأرزاق الجافّة وأستلم ثمار الجوز واللوز واللبن، وفي واحدة من المرّات طرقت على المنزل في طريقي لتسليم الطعام فظهرت من فرجة الباب فتاة شابة بحفلة كوعل جبلي مداهم وفهمتُ عبر التلميحات أنّ العجوز مريضة ويمكنني المساعدة في حلب الأبقار وفعلت. كانت البنت الوحيدة الباقية في المنزل مع العجوز.

كانت آخر مرّة أشاهد فيها درخشان يوم نزولي من الرابية بداية شتاء في إجازة لمدة أسبوع وكانت تبدو منهكة وشاحبة الوجه وقالت إنّها تتمنّى رحلة طيبة ووضعت لي صرة طعام للطريق مع فانيلا مطرزة بأغصان ناعمة وطائر قبج وهلال. عندما عدت، مررت بمنزل العمّة درخشان وكان الثلج يكسو كلّ شيء: الجبال والأشجار والمنازل، ولا يتحرك في هذا الغمر الثلجي سوى دخان المنازل الحجرية. طرقت على الباب، فخرجت الفتاة نفسها ومن دون أن أسأل مضت أمامي خارج المنزل إلى حقل فسيح وأبيض وأشارت إلى

حجرة وراية بيضاء قرب شجرة سرو، وهي تنشج. لم تعد العمّة درخشان موجودة أبدًا إلاّ تحت حجرة وشجرة سرو وثلج هاطل.

٥

كان المترل قد أخذ يكتسب ملامح جديدة من وضع كلّ واحد منّا. تمّ تمتين السياج الخارجي بأحجار كبيرة يجلبها حسين من جولاته في القرى حيث تحوّلت الشاحنة إلى النقل الخاص وبذلك أمن مصدر عيش مقبول، وكان يجلب معه إضافة إلى الأحجار والصخور والأخشاب والنوافذ المتروكة والأبواب المخلّعة الطعامَ والنبيذَ من كلّ الأنواع، وكان فالح حوم ومديحة صالح قد أثثا غرفة النوم بما يلائم زوجين. بنينا للطفلين غرفة ملحقة وزُوِّدت بلعب ودمى ومجلات مصورة. غرفة مزاهر حوم ونوال جياد كذلك.

بنينا غرفة خاصة لبياتريس أو فرح في ركن منعزل من المترل وداخل محيطه وكنت أشتري لها كلّ أسبوع ثمار الفراولة من البلدة من الفلاحين النازلين من أعالي الجبال وبدت مندهشة ومسرورة وهي تأكل هذه الثمار التي تتذوّقها لأوّل مرّة حتّى أنّني لم أرها تمضغ أو تتكلم بهذه الطلاقة إلاّ وهي تمضغ الفراولة بل وترقص معها، ومرَّة قالت لي إنّها صارت تحلم بغابة من نباتات الفراولة تركض فيها إلى ما لا نهاية، وطلبت مني متوسّلة كطفلة تبحث عن هدية أن نحصل لها على نبتة صغيرة لكي تزرعـــهـــا في البيت، فعرفت أنّ بياتريس تشعر

لأول مرة بالاستقرار وتتفتّح كزهرة بريَّة.

"حدثني عن الفراولة" قالت بفرح طفولي.

– "الفراولة نبتة حسّاسة وتحتاج عناية فائقة تزرع في بداية الشتاء وتتفتّح في منتصف شباط وتنضج أوائل نيسان، ويجب أن تؤكل بعد القطاف بأسبوع وما نحصل عليه محفوظ في برادات (ربّما: برّادات) خاصة. الفراولة هي أنت".

– حدثني أكثر. أحبُّ هذا الحديث والثلج يسقط وراء النافذة في الليل. هل تدري أنّني أرى الثلج أوّل مرّة والفراولة أوّل مرّة وأراك أنت أوّل مرّة؟ كلّ شيء يحدث لي لأوّل مرّة"

قلت بسرور لهذا الحوار البشري الطارئ والطبيعي: "الفراولة تبدّل ألوانها في كلّ فترة من الأخضر إلى الأبيض ثم الوردي وأخيرًا اللون الأحمر الناضج. إنّها تشبهك كثيرا".

– في أيّة مرحلة أنا؟

قلت محرجًا: "اختاري بنفسك فلا أحد يضع نفسه في قلبك"

بعد تأمّل طفولي عميق حاولت أن تقول شيئا لكنها صمتت وعادت لتأكل بشغف حسّي يقظ كوعل مستثار من سقوط أوراق الأشجار، دم الرغبة، مرور الريح، قطرات المطر، خشخشة عشب يابس، قفزة سنجاب في دغل.

غرفتنا حسين وأنا تمّ ترتيبها على أفضل حال وكسيت بسجادة قديمة لكنّها مريحة وجلبنا من محلٍّ بعض الكراسي وطاولة ومطبخًا مستعملاً وأواني طبخ. كان فالح حوم يذهب للصلاة في المسجد في حين يذهب حسين مردان بعض الأحيان إلى كنيسة ماركيوركيس في بلدة ديانا لا من أجل شيء، يقول، ولكن من أجل الجوّ الريفي المسالم ومنظر الأُسر وهي ترتل وتنشد أو تتناول الطعام في الحقول المجاورة ومشاهدة معارك طيور القبج ويسمى أيضًا هنا "كه و": توضع أنثى في قفص جاهز لهذا الغرض وتطلق هديلاً جميلاً، ويطلق سراح قبجان ذكران للفوز بها ويتقاتلان حتى الموت ومن ينتصر تذهب الأنثى معه ويكون الرهان على معدّات الصيد وأسلحته في بعض الأحيان، وهذه هي الطريقة نفسها في صيد القبج، وتبدأ عادة أوائل شهر كانون الثاني وتنتهي في نهاية شباط، وقد تعلمتها عبر هذه الحفلات الدموية التي تطلق في الجمهور المراهن والمتفرج غرائز عميقة وصيحات احتفالية مخيفة وملامح متوترة.

كانت العائلة مشغولة بصنع الغرابيل وصنع أقفاص الطيور والسلال، وجلب لنا حسين مرة حصانا لأن حلمه أن يصبح مربي خيول وفي بعض الأحيان نقوم بتنظيف الجلد والصوف وصنع الخيم والآلات الموسيقية، وفي صيد الأرانب والطيور، وكنا ننتظر الوقت المناسب لصيد القبج، وقد تحمست بياتريس للفكرة وكانت تلحّ عليّ في الأمر وكنا نشتري الملابس والأطعمة والنبيذ المحلي وكلّ تجهيزات

المترل بدون حساب. تمكنّا خلال ذلك من زيارة قبر حوم ووضع شاهدة رخامية فوقه مع الاسم وتاريخ الوفاة وترك تاريخ الولادة مفتوحا، وبدأ الثلج يهطل وبرد الهواء وأوحلت الطرق وكنا قد أعددنا المدافئ والحطب وصارت الجبال تغرق مع الوقت بالأبيض الناصع ولكنَّ المترل يشعّ بسعادة دافئة وحيّة ومبهجة.

كنّا في بعض الليالي نقيم حفلات عائلية مرتجلة ونواح ورباية ورقص ونبيذ، وبدا أنّنا ولدنا في هذا المكان الذي كان قبل سنوات مسرحًا للحرب. زارنا راعي كنيسة ماركيوركيس وتحدَّث في الدين والثلج والرقص والمسيح والجنس والأخلاق والقبح وخرج مرتاحًا من إيماننا الصلب والواثق كما قال، وكان منظر حسين مردان وهو يمتطي حصانه في السهل الفسيح مضحكا وبهيجا أيضًا لأنّنا تعوَّدنا على أنَّ مكانه الحقيقي الملائم هو الشاحنة، وكان الأطفال يبدون سعادة غامرة بلُعبهم الجديدة وأرانبهم والحقول الشاسعة والأكثر من كل شيء بالثلج الذي يرونه لأوَّل مرَّة.

كنمو الأعشاب والزهور والبراعم والأعشاش، كانت عواطف سريّة تنمو وتُبنى بصمت الينابيع وسرية تفتح الأزهار وموت الفراشات. كانت بياتريس تلح لصيد القبج كما لو أنها تستعجل الوقت، وكانت تدخل الغرفة في الليل حين أكون وحيدا وتبدأ تسرد عليّ خواطر جسدها الفتي بلا تسرع ولا ابتذال وأحلامها الليلية وفي

اليقظة وعن مشاعرها نحو أمها التي تُركت في قبر مجهول وجدّها الذي مات في مكان حلمه، ومع الوقت حرّكت هذه الأحاديث الأحاسيس المنسيَّة والمدفونة في داخلي وشعرت بالإنسان المُلغى يتململ ولكن بشعور من الحياء والتردّد.

إذن دخلنا في الجزء الثالث من السرديّات ويمكن القول إنَّها سرديّات الجسد والتفتّح. مرّة أخرى إنَّ التقاطعات ليست نهائية والخطوط ليست قاطعة بين:

أولاً: سرديّات الحبِّ والتاريخ والمنفى – بلزاك العجوز.

ثانيًا: سرديّات الحرب والمطاردة – كوران.

ثالثًا: سرديّات الجسد والتفتُّح – بياتريس أو فرح.

قد نكون دخلنا كذلك في مراحل نيتشة الثلاث معكوسة من النهاية: من الطفل إلى الأسد إلى الجمل رغم أنَّ هذه الأدوار تتداخل والمراحل تندمج في الزمن الفردي وتتبادل الأدوار أحيانا. من يدري قد يكون هؤلاء الثلاثة بلزاك وكوران وبياتريس هم في الحقيقة شخصًا واحدًا في أطوار وصور وحالات مختلفة، أو صورتي الداخلية. قد تكون هذه الحكاية هي نفسها حكاية رسَّام بورخيس في كتاب "الصانع" الذي ظلَّ يرسم العالم بكلِّ ما فيه وعند اقتراب الموت اكتشف أنَّه كان يرسم وجهه.

بعد سقوط الثلج وقدوم موسم صيد القبج في أوائل كانون الثاني ونهاية شباط، كانت الأسرة كلّها تعرف بعلاقتنا لكن من دون تذمُّر ولا مشاعر ضغينة. كنَّا قد حملنا القفص والشباك لصيد القبج بياتريس وأنا ومضينا تحت الثلج إلى هضبة مرتفعة وقريبة مكسوَّة بأشجار الحور والسرو والصنوبر وهناك نشرنا الشّباك وتركنا أنثى القبج سجينة في القفص منتظرة الذكر المنقذ.

ازداد الطقس رداءة وانتشرت في السماء غيوم رمادية مرتحلة وهبطت عاصفة مطرية قوية وكانت بياتريس في هذه اللحظة مختبئة إلى حدّ ما تحت معطفي الطويل وكان رأسها بارزًا تراقب بخشوع وحماسة ظهور أسراب القبج وكانت الأنثى قد بدأت تطلق هديلا عذبا هو الجزء المتمِّم من الفخّ، وفي هذه اللحظة برق ضوء في عتمة العاصفة المطيرة وتشابك الأشجار مع صوت آز وطلق ناري يخترق جبهة بياتريس التي أتيحت لها ومضة خاطفة لكي تحدق بي بتلك النظرة التي لا تنسى و لم تكن نظرة رعب بل دهشة.

حملتها بين يدي وتركت القفص والشباك وأنا أشعر أنَّ كلَّ شيء يتهاوى حولي بما في ذلك الجبال والغابات والسماء والصخور والمطر والثلج. حملتها وكانت تبدو نائمة كطفل على وشك الجلوس من نوم عميق في يقظة هائئة وبريئة وعند باب المترل، وكان ينبع منه صوت

ربابة فالح حوم ونحيب طويل كأنّه صادر من هذه السهول الثلجية والجبال الشاهقة والصخور الرمادية، تداعيت معها إلى الأرض.

٥

"والآن سأرحل".

كانت الأسرة جالسة كلُّها، بعد أسبوع من الحادث، ودفن بياتريس على ربوة قريبة بعد أن حصل كوران على عشر شتلات من نبتة الفراولة بصعوبة وزرعناها حولها وأهَلْنا التراب وغطّينا الشتلات بمشع مطري من الثلج الذي غطى المكان واختفت فرح أو بياتريس تحت الثلج كما لو أنّها نائمة مع أزهار الفراولة.

تلقوا قرار الرحيل بوجوم ودهشة عبَّر عنها الصمت العميق الذي قطعه فالح حوم بصوت تالف: "أين ترحل؟".

قالت مديحة صالح: "هذا بيتك ونحن عائلتك".

كرَّرت نوال ومزاهر وكوران الكلام نفسه وكنت أردِّد هذه العبارة "قلت لكم سأرحل".

- لكن إلى أين؟

- "إلى مكان لا أعرف فيه أحدًا ولا يعرفني أحد".

قال مزاهر بصوت متحشرج: "هذا طبع الذّيب من ينجرح يلحس جروحه بمغارة وينعزل وما يشوفه الطير وجروحه ضوه بليل

المغارة ويترف على الريح روحه وينطفي مثل النيازك في البراري بلا وداع ولا مناديل وتحية ومن يجيه الموت يعض على تراب المغارة ومن تصل روحه الوريده ينام على جرحه وما يصيح مثل عوسج يترف بوجه الرمل. غن خويه غن ".

قفز فالح حوم، فجأة، إلى الربابة المعلّقة على الجدار، فأمسكت به مديحة وكوران بقوة، لكنه عضَّ على خشب الربابة بأسنانه فصرخت نوال جياد:

"اتركوه وإلاّ قتل نفسه".

قلت: "لا أتحمّل كلّ هذا، سأخرج".

قال فالح حوم وهو ينحني على الربابة مرتعشا يترُّ عرقًا كجواد يحتضر: "لا يا صاحب، يا زهران، عيب تطلع وما تسمع وداع الكاولي".

بدا تالفًا ونائيًا حين شرع في الغناء: "يا صاح عودي ذبل وبكل دوا ما يصح ـــ والدمع سال وجره من ناظري ما يصح ـــ والنيب مثلي بحنينه لو صحت ما يصح ـــ من حيث مضروب ما بين الجوانح تبن ـــ بمعالج الروح سري لم أموتن تبن ـــ لا تنهضم عل السبع لو صار علفه تبن ـــ واليوم حتى التبن علف السبع ما يصح" [١٢].

---

[١٢] الزهيري للشاعر الحاج زاير

أخذ المكان شكل البرية والربابة صورة فرس تخبُّ منتهبة الأرض، وتحوّل وجه فالح المغني إلى فارس جريح يعض على نواجذه من التريف، ثم تداعى فجأة عندما حاول تكرار "يا صاح... يا صاح...".

غرز أسنانه بخشب الربابة.

تعالى نشيج الأديرة والمعابد والقلاع الحجرية المنسية والوديان والسهول والصحارى والجبال وساحات الحروب والسجون والأسلاك الشائكة والثكنات والريح والطرق والمدن والأنهار والحكايات وضفاف الأنهار... الخ. نشيج طويل ينبع من أرض الصبّار والغزو والقرابين والأساطير والشعر بحجم الكون من كورال قادم من التاريخ.

نهضتُ وقد جهّزتُ صرَّة للطريق ورفضتُ أن يوصلني أحد إلى أي مكان وخرجت أمشي والثلج يتساقط فوق قمم جبال كورك ونواخين وهندرين وزوزك وسهل ديانا وعلى الطريق، وإلى جانبي يمشي ظلٌّ يحمل صرّة.

صاحت نوال جياد خلفي راكضة فصرخت بها: "ارجعي".

"سأرجع ولكن خذ معك أوراق بياتريس فلا أحد هنا يقرأ".

من عمق المترل تصاعد أنين طويل جماعي، كما لو أنّه ينبع من الأرض و لم يكن يبدو أنّه صادر من أعماق بشرية. كانت الأرض تئن في ترتيل جماعي طقوسي لا يصدر إلاّ من المعابد المتلاشية. حين أصبحت في منتصف الطريق وعليه آثار أقدام وعجلات مع الظلّ حامل الصرّة، وصلت مجموعة من سيّاح أجانب من الجانب الآخر للطريق يحملون كاميرات على صدورهم وبثياب أنيقة ومعاطف تتبعهم حافلة سياحية حديثة ومرفهة وكانوا يتحدثون بسرور وخلف رتلهم بمسافة كان يمشي، ببطء، شاب في مثل سبني بشعر طويل ووجه أشقر يظهر عليه النمش وهو يحمل مسجلاً على كتفه تنطلق منه أغنية بصوت جون لينون من فرقة البيتلز:

" تخيّل imagine "[١٣]:

" تخيّل أنّ الفردوس غير موجود، هذا سهل إنْ حاولت، وما من جحيم تحتنا، فوقنا السماء فقط. تخيل الأوطان غير موجودة، لا يصعب عليك أن تفعل ذلك، ما من شيء يستحق أنْ نقتل أو نموت من أجله، ما من دين كذلك، تخيَّل كلّ هؤلاء الذين يعيشون بسلام، قد تقول إنّني حالم، ولكنني لست الحالم الوحيد".

ليس على الطريق في السهل الأبيض، الآن، غير ظلٍّ يمشي.

جون لينون مغني البيتلز وقد اغتيل من قبل معتوه وحقول الفراولة من أشهر أغانيه ١١

ظِلّ يحمل صرّةً تحت الثلج الهاطل في طريق طويل ومقفر.

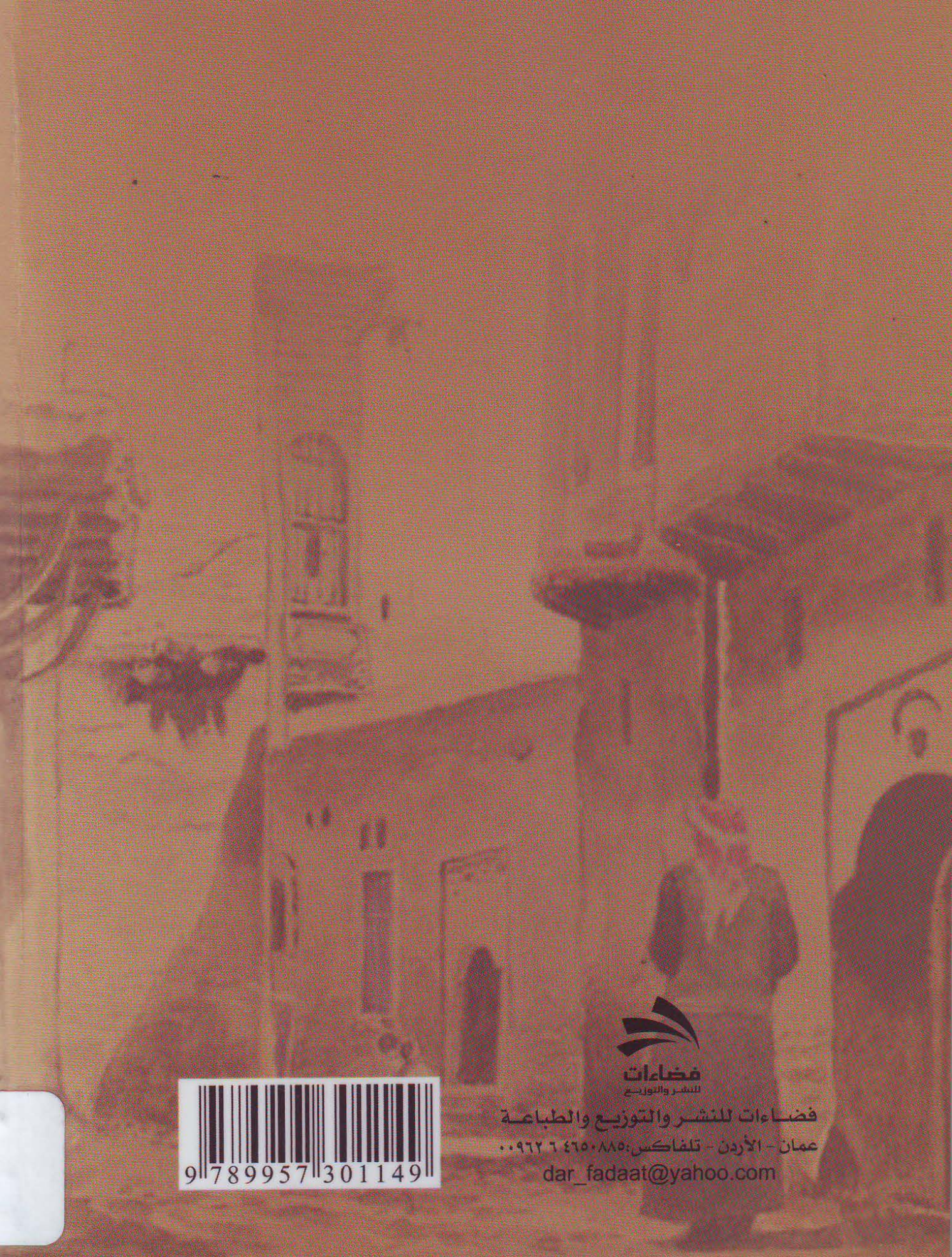

فضاءات
للنشر والتوزيع

فضاءات للنشر والتوزيع والطباعة
عمان - الأردن - تلفاكس: ٠٩٦٢ ٦ ٤٦٥٠٨٨٥
dar_fadaat@yahoo.com

9789957301149